

الكتاب العشرون

الصراع على مصر . حلف مع الامبراطور مانويل

١ - عودة كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ويودس دي سانت اماند الساقى الملكى من القسطنطينية جالبين معها الزوجة المقبلة للملك . تتويج عموري في كنيسة صور وزواجه .

عاد في هذه الاثناء كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ذي الذكرى العزيزة ويودس دي سانت اماند ، الذي كان يعمل انذاك ساقيا ملكيا ، من القسطنطينية عن طريق البحر ونزلا في مدينة صور ، وكانا قد نفذوا بحكمة واخلاص المهمة التي كانا قد ارسلنا في سبيلها الى الامبراطور مانويل ، وتمكنا بالحكمة والاخلاص مع نهاية عامين من تحقيق النجاح لمهتهما حيث جلبا ابنة يوحنا بروتو سيياستوس كزوجة مستقبلية للملك (٢٣٦)

اسرع الملك الى مدينة صور فور معرفته بمقدمهما ، وتزوج هناك ، بعد استدعاء قادة الكنيسة ونبلاء المملكة ، من الاميرة ماريا التي كانت قد تلقت من قبل هبة المسح بالزيت والترسيم الملكى ، واحتفل بالزواج بابهة وبعراسيم لاثقة في التاسع والعشرين من شهر اب في كنيسة صور بواسطة البطريرك امالرخ صاحب الذكرى الطيبة ، وكان الملك مرتديا الثياب الملكية بشكل رائع ، ووضع على راسه تلج اسلافه .

كان يوحنا بروت سيياستوس هذا ، الذي ذكرت ان الملك تزوج

من ابنته ، ابن الاخ الاكبر للامبراطور ، وارسل الامبراطور كمرافقة لابنة اخيه عددا من النبلاء اللامعين والبارزين المقربين اليه بشكل حميم كان بينهم اللورد باليولوغز ومانويل سيباتوس وهو واحد من اقربائه ، وآخرين كثر(٢٣٧) فقد توجب عليهم واجب مرافقة الملكة المستقبلية بابهة كبيرة الى السيد الملك ، والتأكد من انه لم يحذف ايا من الاحتفالات المهيبه المفروضة .

كان رئيس كنيسة صور ، التي اقيمت فيها هذه الاحتفالات انذاك هو اللورد فريدريك ، وكان قد نقل من كنيسة عكا . ومنحني فريدريك هذا بسخاء بعد ثلاثة ايام من الاحتفال بتتويج الملك وزواجه في تلك المدينة ، منصب رئيس شمامسة الكنيسة في مدينة صور وهو المنصب الذي تولى عنه وليم عندما استدعي الى الكنيسة في صور ، وفعل هذا تلبية لطلب الملك وبحضوره مع عدد اخر كبير من الرجال المبجلين(٢٣٨)

٢ - اندرونيكوس أحد أقرباء الامبراطور ، ينقل أرملة الملك بلدوين الى ارض العدو .

وصل في هذه الاونة بينما كان الملك مايزال موجودا في مصر شخص يدعى اندرونيكوس وهو نبيل اغريقي صاحب نفوذ كبير واحد اقرباء امبراطور القسطنطينية قانما من كليكية بمرافقة موكب كبير من الفرسان(٢٣٩) ، وبقي معنا حتى عودة الملك ، وكان مصدر عون كبير بالنسبة لنا ، لكنه كان مثل الاقعى في الصدر او كالفارة في خزانة الثياب ، فقد كافا مضيافية بشكل دنيء ، وبرهن على صحة تلك القول الذي قاله مارو : « انني اخشى من الاغريق حتى عندما يحملون الهبات »(٢٤٠) .

ومنحه الملك مدينة بيروت فور عودته ، ثم دعا الاغريقي ثيودورا

ارملة الملك بلدوين التي كانت ابنة اخيه ايضا ، لتذهب معه لزيارة بيروت ، وكانت ثيودورا تمتلك مدينة عكا التي سبق ان قدمت لها كمهر في زمن زواجها ، وكانت قد استضافت اندرونيكوس لزمن طويل في منزلها . وذلك في الوقت الذي كان يتعاون فيه مع نور الدين اثناء هذه الرحلة ويتآمر فقد خطف الملكة واحتال عليها ونقلها الى بلاد العدو أولا الى دمشق ثم الى بلاد فارس (٢٤١)

٣ - بناء كنيسة في البتراء و الخليل و تعيين أسقفين فيها . قدوم ستيفن مستشار ملك صقلية و الأسقف المنتخب للكنيسة في بالرمو الى سورية . موت الكونت وريم أوف نفرز اثناء وجوده معنا .

لم يحدث شيء يستحق الذكر في المملكة خلال هذا العام باستثناء تأسيس كنيسة في أيام عيد الفصح ، وتعيين أسقفين فيهما وقد أقيمت أولاهما في البتراء الواقعة فيما وراء الأردن في منطقة موآب وهي عاصمة العربية الثانية ، ولم يكن لهذه الكنيسة أي أسقف لاتيني منذ دخول المسيحية الى أرض الميعاد . ويقال إن الكنيسة الثانية وأقصد بها كنيسة الخليل لم تتلق ذلك الشرف من قبل حيث كانت في أيام البيزنطيين مجرد أبرشية ، وهذه كانت أيضا مرتبة الكنيسة في بيت لحم كما هو معروف تماما إلا أن كنيسة بيت لحم رقيت باستحقاق الى ذلك المقام الرفيع أولا بسبب التوقير الذي احتفظت به كمسقط لرأس ربنا . كما منحت حقوق وامتيازات كاتدرائية في أيام حكم الملك بلدوين الأول مباشرة بعد استرداد المدينة المقدسة حبيبة الرب (٢٤٢)

واكتسبت الخليل أيضا ، لأول مرة في هذا العام الذين نحن بصده ، ذلك المقام الذي كان لائقا بها بسبب صلتها بعبيد الله ، نوي الذكرى المباركة الى الأبد ، وهم إبراهيم وإسحاق

ويعقوب . واختير غوريكوس أسقفا للكنيسة في البتراء ، وهو شماس نظامي في هيكل الرب ، وعين مطرانا للعربية ايضا ، بينما تلقت الخليل كرئيس لها ، رينالد ابن أخي البطريرك فولتشر ذي الذكرى المجلدة .

وصل في الصيف اللاحق ستيفن ، وهو نبيل من منزلة سامية ، ومستشار ملك صقلية وأسقف منتخب للكنيسة في بالرمو ، الى المملكة بمرافقة حاشية صغيرة . كان ستيفن أخا للكونت روتودي بيرشي وكان رجلا شابا له مظهر وسيم وصاحب مقدرة طبيعية ممتازة ، وكان قد وقع ضحية لمؤامرة من جانب عصابة النبلاء في صقلية ، نجحوا في مؤامرتهم بطرده من البلاد ، وتم تنفيذ هذا خلافا لرغبات الملك الشاب الذي كان قاصرا ، وخلافا لرغبات والدته ، إلا أنهما كانا عاجزين عن الحيلولة دون حدوثه ، ونجح ستيفن بصعوبة بالغة في تفادي مؤامرات النبلاء ، وأتى اليها بطريق البحر ، لكنه أصيب بمرض خطير بعد زمن قصير من وصوله أدى الى وفاته ، فدفن في القدس بإجلال رائع في إحدى كنائس هيكل الرب (٢٤٣)

وأتى الى القدس في حوالي الوقت نفسه وليم كونت نفرز حيث كان سيديا قويا من أسرة نبيلة تتمتع بنفوذ كبير ، وقد قدم من مملكة فرنسا بمرافقة مجموعة مهيبة من الفرسان ، وقد قدم على نية القتال في سبيل الديانة المسيحية ، وعلى نفقته الخاصة ، ضد أعداء عقيدتنا ، الا أن موتا مبكرا وحقوقا على شجاعته الناجحة ، قد حال بشكل مؤسف للغاية دون تنفيذ هذا الهدف النبيل والورع ، فقد أصيب وليم بداء مزمن ، وتوفي بعد معاناة طويلة وذلك في البداية نفسها لحياة كانت ذات مستقبل واعد جدا ، وحزن الجميع على موته وتأسفوا عليه (٢٤٤)

٤ - وصول مبعوثين من عند الامبراطورية يطالبون ببعض الموافقات من الملك لإرسال رئيس شماسة صور كمبعوث الى القسطنطينية . عقده الاتفاقية المقترحة مع الامبراطور .

وصل في غضون ذلك الصيف نفسه الكونت الاسكندر أوف غرافينا ورجل اسمه ميخائيل هايدرو نتتوس (أوف أو ترانتو) ، وكلاهما عضوان في بلاط امبراطور القسطنطينية ، الى صور في مهمة امبراطورية (٢٤٥) ، ومنحا مقابلة خاصة كان الملك قد استدعى اليها الذين كان يرغب بوجودهم في المداولة ، وشرح المبعوثان أسباب قنومهما وقدمتا الى الملك رسالة من جلالته الامبراطورية تعالج الموضوع ذاته .

كان فحوى الرسالة على النحو التالي : « أترك الامبراطور أن المملكة المصرية ، التي كانت حتى الوقت الحالي قوية وغنية بافراط ، قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف ، كما أصبحت الشعوب المجاورة مدركة أيضا لعجز وضعف الحاكم والامراء ، وحيث يبدو أنه من المستحيل أن تتمكن المملكة من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن بحالتها الراهنة ، وأنه يجب أن تنتقل حكومتها وألسيطرة عليها بحكم الضرورة الى شعوب أخرى : فان الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك أن يخضعها لسلطاته بسهولة » . ولقد كان بسبب هذه المسألة أرسل المبعوثين الى الملك .

يقول بعض الناس - وبشكل معقول جدا - ان الملك هو أول من اقترح هذه المسألة على الامبراطور بوساطة رسل ورسائل متكررة بحيث حث الأخير على مساعدته بالجنود وبأسطول وبالمال اللازم ، وكان الامبراطور سيتلقى مقابل ذلك حصة محددة من تلك المملكة ومن جميع المغنم التي يمكن الاستيلاء عليها .

إذا هذه طبيعة العمل التي كان المبعوثان قد قدما الى الملك
بشأنها ، ولقد انضمت الى الوفد كواحد منه بأمر الملك وذلك عندما
كان الطرفان قد وافقا في آخر الأمر على شروط الاتفاقية ، وتوجب
على زيارة الامبراطور كصامل للرسائل ، وأن أنقل قرار الملك
والمملكة بأسرها اليه ، وعلاوة على ذلك ، فقد خولت بالمصادقة على
الاتفاق بينهما كما هو متوقع ان يطلب مني ، لكن وفق الشكل المتفق
عليه من قبل .

وهكذا ، انضمت الى المبعوثين الامبراطوريين اللذين كانا
ينتظران قدومي في طرابلس ، وذلك حسبما وجهني الملك
بالرسائل ، وانطلقنا سوية الى القسطنطينية ، وكان الامبراطور
نفسه محتجزا في تلك الآونة في الصرب حيث كان الناس قد تمردوا
على سلطته .

والصرب هي بلاد جبلية واقعة بين دالماشيا وهنغاريا
إيليريا ، وهي مكتظة بالغابات ويتعذر بلوغها . وكان الصربيون
قد تمردوا معتمدين على تعذر الاجتياح الشامل لبلادهم وعلى
الممرات الضيقة المؤدية الى داخلها .

تقول التقاليد القديمة إن جميع الناس يستمدون أصلهم من
المغتربين اللذين نفوا الى هذه البلاد والذين حكم عليهم بالعمل في
مقالع الرخام وفي المناجم ، ويقال إنهم أخذوا اسمهم من حالة
العبودية هذه . وكانوا شعبا فظا وفوضويا يعيش في الغابات
والجبال ، وليس لديه أية معرفة بالزراعة ، لكنه يمتلك قطعانا
وماشية كبيرة تزوده بكميات كبيرة من الحليب والجبن والزبدة
واللحم ، ولديه إضافة لذلك وفرة من العسل والشمع ، وعندهم
حكام يحملون اسم سوباني Suppani .

وكانوا يطيعون الامبراطور أحيانا ، وبما أنهم شعب مولع
بالحرب وشجاع ، فإنهم كانوا يهجمون من معاقلهم الجبلية

ويخربون جميع المنطقة المجاورة ، وكان الامبراطور قد زحف بشجاعة اليهم على رأس جيش كبير بسبب اعتداءاتهم التي لا تحتمل ضد جيرانهم ، ونجح أخيرا في قمعهم وأسر زعيمهم الأكبر ، وحدث أن صادفنا الامبراطور عائدا من هذه الحملة في مدينة بوتلا في اقليم بيلاغونيا ، بعدما تغلبنا على الكثير من مصاعب الطريق ، وتقع مدينة بوتلا هذه بالقرب من المدينة القديمة والمعروفة سابقا باسم جستنيا الرئيسة ، التي كانت مسقط رأس الامبراطور جوستينيان الذي كان لا يقهر وكان الاكثر حكمة وسعادة ، وتدعى الآن عموما باسم اكريدا أو (خريدا) .

منحنا هنا استقبالا مشرفا من قبل الامبراطور ، الذي عاملنا بلطف امبراطوري ، وأعلننا اليه بوافع رحلتنا وأسباب مهمتنا ، وشرحنا فحوى المعاهدة بعناية مثلى . واستمع الى القصة بأكملها بسرور كبير وقبلها بلطف ، ووافق على كل ما كان قد اتفق عليه ، وبعدما أدى الطرفان يمينا مقدسا ، صادق الامبراطور بسلطته على جميع التفاصيل التي أعدها المبعوثون من قبل ، وأبرم المعاهدة .

وتلقينا رسائل امبراطورية تتضمن نص المعاهدة بأكملها ، ثم أنن لنا بالمغادرة بعد أن حملنا أعطيات رائعة حسب العادة المألوفة ، وانجزت مهمتنا الآن بنجاح ، وهكذا ، بدأنا رحلة العودة في الأول من شهر تشرين الأول .

٥ - الملك يقود جيشا الى مصر و يشتبك بالقتال مع المصريين و ذلك خلافا لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم من قبل .

في هذه الأثناء بعد رحيلنا مباشرة ، وقبل أن تتمكن سفارتنا من العودة لابلاغ الملك عن المساعدة الموعودة للامبراطور ، بدأ يشاع في

كل من البلاد أن شاور سلطان مصر كان يرسل باستمرار رسلا الى نور الدين ، ويلتمس مساعدته بشكل سري ، وقد ادعى انه كان معارضا تماما ولا يرغب بالانضمام الى أية معاهدة سلام مع العدو ، وأنه راغب بالانسحاب من الاتفاق الذي كان قد عقده مع الملك ، وأنه سيلغي المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما اذا ماتأكد من مساعدة نور الدين له .

يقال ان الملك جمع قوات من المشاة والفرسان من جميع انحاء المملكة ، بعدما سخط - وهو محق - إزاء النبأ ورحل بسرعة متوجها الى مصر ، هذا ويوجد من يدعي أن جميع هذه الاتهامات كانت كاذبة ، وأن السلطان شاور كان بريئا تماما ، وكان قد حافظ بنية طيبة على المعاهدة وعلى جميع شروطها دون أن يستحق هذه المعاملة ، ويؤكدون أن الحرب التي أثرت ضده كانت حربا جائرة ومخالفة للقانون السماوي ، وأنها لم تكن سوى نريعة مفتعلة للدفاع عن مشروع فظيع ، ويؤكدون أنه لهذا السبب ، سحب الرب ، الذي يحكم بشكل دقيق وفقا لاطلاعه على أسرار القلب والضمير ، تأييده منا تماما ، ورفض ان يمنح النجاح لمشروعنا الغابر .

ويروى ان غيربرت المكنى أساليت (غلبرت دي أسالي) مقدم بيت الاسبتارية في القدس ، كان المحرض الرئيسي ، ان لم يكن المبدع لهذه الحملة المشؤومة ، فقد كان رجلا عالي الروح ، وسخيا جدا ، غير أنه لم يكن مستقرا بل كان متقلب السلوك والسماط ، فقد استلف مبلغا كبيرا من المال بعد نفاذ جميع ثروات الاسبتارية ، وأنفقة بأكمله ايضا على الفرسان الذين استدرجهم اليه من كل مصدر ، وأثقل بهذه الطريقة منظمته بدين باهظ لم تكن هنالك أية امكانية لدفعه ، وقد تخلى أخيرا عن منصبه بعدما أصابه اليأس وتخلى عن مسؤوليات ادارة الاسبتارية وتركها مثقلة بديون تصل الى مائة ألف قطعة ذهبية ، ويقال انه انفق هذه المبالغ

الضخمة على أساس اتفاق عقده مع الملك وعلى أنه اذا تم الاستيلاء على مصر وجرى اخضاعها فان بلبيس ، التي كانت تعرف من قبل باسم بليوسيوم ، ستصبح ملكا لهذا البيت مع جميع أرضها الى الأبد .

وخلافا لهذا رفض فرسان الداوية المشاركة في هذه الحملة ، اما لأنها بدت بالنسبة لهم مخالفة لأوامر الضمير ، أو لأن مقدم بيت منافس لهم كان من الواضح مؤسسا للمشروع وزعيما له ، وقد رفضوا اتباع الملك أو تزويده بالجند ، وبدأ لهم أن اعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد على نيتنا الحسنة ، كان خطأ ومخالفا لفحوى المعاهدة ، وتحديا للحق والعدالة لأن مصر كانت قد حافظت على نية حسنة ولم تكن تستحق معاملة كهذه (٢٤٦)

٦ - حصار مدينة بلبيس والاستيلاء عليها. السلطان يضلل بوعدته بمبلغ كبير من المال.

وهكذا فقد اتخذ الملك جميع استعداداته ، وجمع سائر المعدات الحربية ، ثم استدعى في شهر تشرين الأول من العام الخامس لحكمه قوات المملكة ، ونزل الى مصر (٢٤٧) ، ووصل الى بلبيس بعد مسيرة نحو عشرة أيام في الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وبدأ على الفور عمليات الحصار ، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه الى داخلها بالقوة واستولى على المدينة بحد السيف ، وبنما تأخير قام في الثالث من شهر تشرين الثاني بتخليك قواته جميع ارجاء المدينة .

وما أن جرى الاستيلاء على المدينة حتى جعل الغالبية العظمى من السكان طعمة للسيف نون مراعاة للعمر أو الجنس ، واذا صدف أن نجا بعضهم من الموت فقد كابنوا من فقدان الحرية ، وسقطوا تحت نير العبودية التعيس وهو مصير بالنسبة للرجال الشرفاء أسوأ

بكثير من أي شكل من أشكال الموت ، وكان بين الأسرى ذوي المنزلة العالية الذين أسروا في بلبيس معزى ابن السلطان اضافة الى واحد من ابناء اخوته (السلطان) فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان العساكر المحشودة هناك .

اندفع الجند الى داخل المدينة بفوضى وبدون ضوابط فور فتح أحد مداخلها ، وتغلغلوا - دون مراعاة لأي تمييز من أي نوع - الى أكثر الملاجئ انعزالا ، وفتحوا الدور الخاصة وجـروا بالسلاسل الى موت شائن كل من فكر بيأس بالنجاة بواسطة الاختباء ، كما قتلوا على الفور جميع الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب والذين كانوا قادرين على حمل السلاح ، ونادرا ماجرى استثناء المسنين والأطفال ، ولم يبق لعامة الناس أدنى اعتبار ، وأصبح كل شيء له قيمة او مرغوب به غنيمة للعدو ، وقسمت السلع الأكثر قيمة بالقرعة كغنائم.

واستولى الرعب على شاوور تماما لدى سماعه نبأ هذه الاعتداءات وقد احتار حول المنحى المتوجب اتباعه ، وبدأ يفكر بقدر ماسمحت له الظروف والوقت بمحاولة تخفيف سخط الملك بعرض المال عليه وبالتوسل الى الزعماء المجاورين الذين كانوا ينتمون الى عقيدته نفسها كي يساعده بشكل مجاني أو مأجور ، وصمم في النهاية أن يستخدم كلتا الوسيلتين كتدبير وقائي وعاجل للمسألة وهكذا ، فقد أرسل وفدا الى نور الدين لطلب المساعدة ، وجرى تلبية هذا المطلب بسرعة واستدعى نور الدين شيركوه ، الذي ذكرناه من قبل ، وعهد اليه بقيادة قسم من الجيش ، وأعطاه عددا كبيرا من نبلائه للمشاركة في المسؤولية ، وعهد بتأمين المؤن الضرورية للزحف ، وأمن عددا مناسباً من الجمال لحمل الأمتعة وأرسل الحملة الى مصر .

٧ - الملك يعسكر أمام القاهرة و هو ينتظر المال الذي وعد به السلطان .

بعد تدمير بلبيس زحف الملك نحو القاهرة مع جميع قواته وسار بشكل بطيء جدا لدرجة أنه نادرا ما تقدم مسافة مسيرة يوم واحد كل عشرة ايام ، ووصل أخيرا الى هدفه ، وأقام معسكره أمام المدينة ، وجهد الآلات الحربية للعمل . وأقيمت السواتر الحاجزة ، وأعد كل شيء آخر قـد يكون مفيدا في عمليات الحصار ، وبنت هذه الاستعدادات خارج الاسوار بأنها تنبئ بوقوع هجوم خلال وقت قصير جدا ، وامتلات قلوب المحاصرين رعبا وارتجفت وشعروا أنفسهم أنهم معرضون تماما للمخاطر وسيواجهون الموت (٢٤٨)

وأعلن الذين يعرفون الأسباب السرية المؤكدة لأعمال الملك بأنه اجل شن الهجوم حتى يتمكن السلطان (٢٤٩) الخائف من الحصول على مزيد من الوقت للتفكير ، وليدفع بالتالي لتقديم المال لشراء انسحاب الجنود ، وكان الهدف الكلي للملك هو ابتزاز المال من السلطان ، وكان يفضل ان يأخذ رشوة كبيرة وينسحب على أن يعرض تلك المدن للسلب على أيدي شعبه ، كما تم تنفيذ ذلك في بلبيس وسيتم شرح هذه الرواية بشكل أكمل في وقت لاحق .

جرب السلطان خلال هذه الفترة جميع وسائل التقرب الى الملك عن طريق أفراد أسرته وعن طريق أفراد أسرة الملك ، واستخدم كل وسيلة بارعة ، وأخيرا أثرت عروضه على عقل الملك الجشع لأن المبلغ الذي وعده به كان كبيرا جدا الى حد أن جميع موارد الملكة بنت عاجزة عن دفعه ، حتى وان جمع من جميع الجهات ، ويقال أنه وعد بمليون قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب الجنود الى موطنهم ، وقدم هذا العرض - كما كشف النقباب عن ذلك فيما بعد - دون أن يتوقع القدرة مطلقا على تنفيذ

وعوده ، بل ليمنع الملك من التقدم نحو القاهرة فجأة ، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الاطلاق ، وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجئ بحالتها اللدفاعية ، ويعتقد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت أن هذا كان سيحدث دون ريب لو تقدم جيشنا بسرعة ودون توقف نحو القاهرة مباشرة بعد الاستيلاء على بلبيس ، لأن المصريين كانوا في ذلك الوقت ضعفاء جدا ، ولقد صعقوا بالفعل بسبب المجزرة التي وقعت مؤخرا ، والكارثة المفاجئة التي حلت بتلك المدينة العظيمة ، ويبدو هذا محتملا جدا بالفعل ، لأن سكان القاهرة كانوا ضعفاء ومخنثين وبدون تدريب عسكري على الاطلاق ، وكانوا قد أوقفوا انفسهم على المذات لفترة طويلة من الزمن . وكانت المدينة المجاورة مازال تحترق ، وكانوا انفسهم منهكين تماما بسبب فقدان أصدقاء كثيرين ، ولم تكن لديهم شجاعة ولا قوة للمقاومة في وقت كهذا بينما كانوا يخافون على انفسهم من المصير الذي كان قد باغت الآخرين .

٨ - اسطولنا يبحر في نهر النيل و ينضم الى القوات البرية . السلطان يتخلى عن اتفائه . السلطان يحاول المقاومة و يلتمس المساعدة من الاتراك .

كان هذا هو الوضع الذي ساد آنذاك في المنطقة المجاورة للقاهرة ، ووصل في هذه الأثناء الأسطول الذي كان الملك قد أمر - عند رحيله من المملكة - أن يبحر بالسرعة الكلية ، ويقال إنه دخل نهر النيل ، بعدما نقلته رياح مواتية ، عن طريق ذلك الفرع المعروف عموما باسم الدلتا واستولت القوات البحرية فورا على مدينة تنيس ، وهي مدينة قديمة جدا تقع على تلك الضفة من النهر ، وسلمتها الى الجند للسلب والنهب . ثم حاول الاسطول أن يبحر الى الامام لينضم الى الملك ، الا أن المصريين سدوا نهر النيل بمراكبهم ومنعوا مروره ، فأرسل الملك على الفور همفري أوف تورون ، كافل المملكة مع مجموعة منتخبة من الفرسان للاستيلاء

على الضفة المقابلة إذا أمكن ذلك ، وأن يحتفظ بممر على ذلك الجانب على الأقل بدون إعاقة ، وكان من الممكن تنفيذ هذا دون صعوبة لو لم تكن إشاعة قد ظهرت في تلك الأثناء أفادت أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة ، وفرض هذا تغييرا للخطط ، وصدرت الأوامر الى الأسطول بأن يبخر ليخرج من النيل الى البحر على الفور وأن يعود الى الوطن ، وتم تنفيذ ذلك ، هذا وفقدت إحدى الشواني بسبب قلة الحيلة الموائمة .

ولم يوقف السلطان وشعبه جهودهم في هذه الأثناء لطرد الملك من بلدهم ، وحققوا ببراعة في التخطيط ماكانوا قد افتقروا الى تحقيقه بالقوة ، وعوضوا عن ضعف قواتهم باستخدام وسائل بارعة فقد طالبوا عندما وعدوا بتقديم المال ، بمنحهم المزيد من الوقت والفرصة ليقوموا بدفع المال ، وكان المسوغ الذي قدموه هو تعذر تأمين مبلغ ضخم من المال بهذا المقدار من مصدر واحد ، لذلك يجب منح وقت اضافي قبل أن يمكن تنفيذ الاتفاق ، الا انهم دفعوا مبلغا قدره مائة ألف قطعة ذهبية على الفور ، فأطلق المسيحيون مقابل ذلك سراح ابن السلطان وابن اخيه ، وقدم السلطان اثنين من أبناء أخواته كرهائن لدفع المال المتبقي ، وكانا غلامين صغيري السن .

وبناء عليه رفع الملك الحصار وانسحب مع قواته الى موقع يقع على بعد نحو ميل ، وأقام معسكره بالقرب من حدائق البديسم ، ومكثت القوات هنا لمدة ثمانية أيام ، وتلقى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من السلطان ، وأخيرا نقل المعسكر ثانية الى موقع يسمى سرياقوس .

كان السلطان يرسل رسله في هذه الأثناء الى كل مكان من المملكة لالتماس المساعدة ، وجمع جميع الأسلحة المتوفرة ، واستدعى المدد من الريف المجاور . وأمر بجلب المؤن الغذائية الى القاهرة ، وتأكد أنه تم دعم جميع الأماكن الضعيفة في المقاومة ، ودرست جميع وسائل المقاومة ، ودعا شعبه بأقوال مقنعة ، الى خوض القتال

دفاعا عن أرواحهم وحريرتهم وعن زوجاتهم وأبنائهم ، ورسم أمام أعينهم صورة حية للكارثة الرهيبة التي كانت قد حلت بمدينة مجاورة ، ووصف مرارة العبودية ونير المحتل الذي لا يمكن حمله ، والقدر البائس للخاضعين للعبودية .

٩ - مليون دي بلانسي يفسد عقل الملك برأي شرير .
وصول شيركوه استجابة لدعوة المصريين . الملك يزحف في الصحراء لمواجهة ، لكنه لا يجده . الملك يعود لهذا السبب الى موطنه دون تحصيل نتيجة .

كان من جيش الملك رجل من أسرة نبيلة غير أنه منحط الأخلاق وكان رجلا لا يخشى الرب ولا يحترم الانسان ، لقد كان مليون دي بلانسي رجلا بلا حياء ، وكان مثيرا للشحناء وقادرا نشيطا على اثاره المتاعب دوما وبما أنه كان على بيئة تامة بجشع الملك وبنهمه لتحقيق الثراء ، فقد اختار ان يرعى هذه النزعات البشعة بدلا من أن يقدم نصائح مفيدة ، وكان قد نصح الملك بشكل مستمر منذ البداية في أن يوقف جهوده على هدف محدد و هو أن يبتز من المملكة المصرية المبلغ المذكور أنفا ومن ثم التوصل الى تسوية مع السلطان والخليفة عوضا عن محاولة الاستيلاء على القاهرة وبابليون بالقوة ، ويقال أنه فعل هذا لانه كان يعتقد استحالة الاستيلاء على المدينة ، بل ليتمكن من التفوق على الفرسان والآخرين الذين كانوا يتطلعون بتلهف الى المغانم ، ويحول بالتالي جميع مكافآت هذه الحملة العظيمة الى الخزينة الملكية ، لأن الجيش يحصد عادة الحصاد الأعظم من المغانم ، عندما يتم الاستيلاء على مدينة ما بالقوة وبشكل أغنى بكثير مما هي الحال عندما يتم الاستسلام للملك أو لأمير بشكل مباشر ووفق شروط محددة لمعاهدة يستفيد الحاكم منها فقط .

يسمح حق الحرب لكل جندي في الحالة السابقة أن يستولي وسط

جلبة النهب وفوضى السلب على كل شيء يلقيه الحظ في طريقه ، وتزداد بالتالي الوسائل الخاصة للمنتصرين ، هذا وإن الفائدة تكون كلها للملك في الاحتمال الثاني ، ويصبح كل ما يكسبه بهذه الوسيلة حقا لخزائنه ، زد على هذا انه وإن كان يبدو أن كل شيء يزيد ثروة الجميع ، غير أن الفرد يسعى دوما بتلهف للحصول على المكاسب التي تساعد على توسيع ممتلكاته الخاصة وتزيد ممتلكاته الذاتية أو المنزلية.

ولذلك ، فإن اختلاف المشاعر أدى الى حدوث متصادات خطيرة ، فقد طالبت الأغلبية أن يترك القرار الى السيف وأن يعهد بكل شيء للنهب ، بينما طالب الملك وفريقه بعكس ذلك ، وانتصرت رغبات الملك وفريقه في آخر الأمر ونفذت ارادتهم.

عندما كان الجيش مخيما في القرية المذكورة منذ لحظات والتي تبعد خمسة أو ستة أميال عن القاهرة استمر تيار ثابت من الرسل بالذهاب والاياب بين الجانبين وكان السلطان يرسل وعودا بشكل مستمر بأنه كان يبذل كل جهد لجمع المبلغ الموعود ، وتوسل الملك في هذه الأثناء بعدم التفكير في التأجيل بل الانتظار بصبر ، كما نصحه بعدم الاقتراب الى مسافة قريبة من المدينة خشية من أن يغضب الخليفة والشعب اللذين كانا يعتمدان بأمن تام على معاهدة السلام التي أعدت من قبل ، وسيتم دفع المال بسرعة وسيتمكن الملك من العودة الى موطنه في ظروف مواتية ، واستغل السلطان شاور سذاجة المسيحيين بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل ، وأبطل بذلك النصيحة الجيدة والتحذيرات الحكيمة التي صدرت عن أشخاص آخرين اقترحوا خططا أكثر حكمة ، ثم ظهرت فجأة شائعة أفادت أن النبأ صحيح وأمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس ، وزود نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول الى الصحراء لمقابلة شيركوه ، لكنه بعدما توغل في داخل الصحراء ، ذكر له كشافة ثقاة ، كانوا يعرفون المنطقة تماما ، أن

شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته ، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط ، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزيات ، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن ، لأن التأجيل كان مشحونا بخطر شديد ، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازفة مماثلة ، ولم يظهر السلطان بعد ذلك أية نية للالتزام بالمعاهدة ، وكنا عاجزين عن إجباره لعمل ذلك ، وكان قد مدد المسألة بسياسة تأجيل بارعة ومدروسة بحذر حتى أصبح الأتراك قريبيين وتوجب علينا أن نرحل ، وهكذا ، عادت القوات الى بلبيس حيث انضمت اليها الفرقة التي كانت قد خلفت هناك لحراسة المدينة ، وعاد الجيش المسيحي وهو على تعبئة الى سورية في الثاني من شهر كانون الثاني (٢٥٠) .

١٠ - استيلاء شيركوه على مصر . شيركوه يقتل السلطان ثم يقتل هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير .

شعر شيركوه الآن أن الوقت كان مواتما لينجز هدفه ، حيث لم يكن هناك أي شيء يعيق رغباته . بعدما رحل الملك ، ولذلك أمر بتنفيذ الخطة التي كان قد وضعها ، وأقام معسكره أمام القاهرة وكان قدومه كان بدون نية عدوانية ، وانتظر بصبر هناك كرجل واع لعدة أيام ، ولم يبدا أية دلالة على مشاعر معادية أو لخطة ماكرة ، وأخفى بذكاء نيته الحقيقية وببراعة كان مشهورا بها ، وكان السلطان شاوور يخرج كل يوم بمرافقة حاشية ضخمة لزيارته في معسكره ، وكان يعود الى المدينة بعد تقديمه التحية المخلصة المألوفة ومنح الأعطيات .

بنت الطمأنينة المرافقة لهذه الزيارات المتتالية واعدة بشكل جيد للمستقبل ، وزاد من ثقة السلطان الاستقبال المبجل الذي أضفى عليه لعدة أيام ، إلا أنه اعتمد للأسف - في هذه الطمأنينة

الوهمية - اعتمادا مفرطا على إخلاص الأتراك ، ولذلك باغته على حين غرة شيركوه كمخطط للقتل ، فقد كان قد أصدر أوامر سرية الى اتباعه أنه يجب عليهم مهاجمة الحاكم المصري وقتله في فجر اليوم التالي عندما يخرج بنفسه وكأنه ذاهب الى الشاطئ في الوقت الذي كان يقوم به السلطان بزيارته اليومية وهكذا انقضت قوى الموت على شاور عندما ذهب الى المعسكر في الموعد العادي ليقوم بزيارته المألوفة ، وليقدم التحية اللائقة ، ونفذت أوامرها وألقته أرضا وطعنته طعنات قاتلة ثم قطعت رأسه.

وشهد أبناؤه الجريمة ، فامتطوا جيادهم على الفور ، وجروا بسرعة عائدين الى القاهرة حيث سجدوا أمام الخليفة وركعوا أمامه متوسلين اليه أن ينقذ حياتهم ، ويقال أنه أجاب أنه بإمكانهم أن يأملوا بالنجاة شرط أن لا يقوموا بإجراء أي اتصال سري مع الأتراك ، غير أنهم خالفوا هذه الشروط مباشرة وذلك بأن أرسلوا بصورة سرية رسلا للتفاوض مع شيركوه حول السلام. فأمر الخليفة بقطع رؤوسهم عندما أبلغ بهذا .

كان الملك قد رحل الآن ، وكان شاور قد أزيل من هذا العالم . فاستولى شيركوه على المملكة فورا بعدما سر تماما بتحقيق رغباته ، وقام بزيارة للخليفة ليقدم له التبجيل اللائق ، فاستقبل بإجلال كبير ومنح لقب سلطان. وهكذا أصبح شيركوه سيدا لمصر بأسرها لأنه كان مقتدرا يعتمد على قوة عسكرية كبيرة.

يا للطمع الأعمى لدى الرجال ، الجريمة الأسوأ من جميع الجرائم ، يا للجنون الشرير للقلب الجشع والنهم ، فقد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة سلمية آمنة الى وضع قلق ومضطرب ، لقد لبت جميع موارد مصر وثرواتها الضخمة حاجتنا ، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجانب ولم يكن هنالك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب . وكان البحر ممرا آمنا وسليما

الى الذين كانوا يرغبون بالقدوم الينا ، وكان بإمكان شعبنا دخول الاراضي المصرية دون خوف والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية ، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعا غريبة الى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا ، وكانوا يقدمون لنا منافع كبيرة وشرفا كلما قاموا بزيارتنا ، وعلاوة على ذلك ، فإن المبالغ الطائلة التي أنفقوها كل عام بيننا قد أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد ، بيد أنه حدث العكس الآن وتغيرت جميع الأمور الى الأسوأ . « كيف أكره الذهب تغير لا أجد الأبريز الجيد » و « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٢٥١). وحيثما التفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق ، فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقا آمنا ، والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة ، والممالك الأخرى تستعد لابلاتنا . إن جشع أحد الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث ، كما أن فهمه - وهو أصل الشر - قد شوه الصفاء التي كانت السماء قد منحتنا إياه (٢٥٢) ولنكمل الآن قصتنا.

أمسك شيركوه ، بعد المقتل الجائر للسلطان وأبنائه والذي كنا السبب الشرير له بسبب سلوكنا الأثم ، بالسلطة الملكية والتحكم بمصر حسب رغبته ، لكن لم يسمح له بالتمتع لفترة طويلة من الزمن في سلطانه ، لأنه أنزاح من بين مشاكل هذا العالم قبل مضي عام واحد على تسلمه السلطة. (٢٥٣)

١١ - صلاح الدين ابن أخي شيركوه يخلفه وهو الذي يحكم مصر الآن.

خلف شيركوه في الحكم صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين (٢٥٤) وكان الحاكم الجديد رجلا حاد الذكاء نشيطا وشجاعا في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم ، ويروي أنه طرح مولاه أرضا بهراوة كان يحملها بيده وقتله وذلك في بداية حكمه عندما زار الخليفة

ليقدم له الولاء الذي كان مدينا له به ، ثم قتل جميع أبناء الخليفة حتى لا يخضع لأية سلطة عليا ، بل ليتمكن من الحكم كخليفة وسلطان على حد سواء ، فقد كان المصريون ينظرون بكرهية الى الأتراك ، وخاف صلاح الدين من أن مولاه الخليفة قد يأمر بقتله في يوم ما عندما تسنح له الفرصة للمثول أمامه ، وهكذا ، اتخذ وسائل لاحباط أية نية كهذه ، وألحق بالخليفة المطمئن المصير الذي ، إن صحت الرواية ، كان يحضره لينزله به كسلطان (٢٥٥) .

استولى صلاح الدين لدى مقتل الخليفة على ثروته وعلى جميع كنوزه الملكية وحازها لنفسه ، وذلك بالإضافة الى كل شيء له قيمته كان موجودا في القصر ، وتصرف بجميع الأشياء حسب هواه ، وأغدق الأموال على جنوده خاصة بسخاء كبير لا بل بسرف لدرجة أن الخزائن فرغت في غضون بضعة أيام ، واضطر لأن يستقرض المال من الآخرين ، وهكذا ، جلب على نفسه عبئا كبيرا من الدين.

ويروي أن بعض المواليين للخليفة المقتول أنقذوا سرا بعض أبنائه بهدف أنه إذا ما استعاد المصريون في وقت قادم السيطرة على الحكومة ، لن يعدموا وريثا لاسمه ومنصبه وسلالته.

١٢ - تعيين برنارد ، راعي دير جبل الطور رئيسا لكنيسة اللد . رحيل فريدريك ، رئيس أساقفة صور الى الغرب ، لطلب المساعدة من الأمراء هناك.

لم يحدث بعد عودة الملك الى المملكة أي شيء جدير بالملاحظة خلال القسم الأول من ذلك العام ، باستثناء وفاة رينوروس أسقف اللد ، الطبيب الذكري ، وتنصيب برنارد رئيس دير جبل الطور في مكانه.

بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع اللاحق ، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري(٢٥٦) أن اخضاع الأتراك لمصر شكل خطرا كبيرا وحمل أذى شديدا بالنسبة لنا ، وأن وضعنا قد ازداد سوءا من الناحية المادية . وكان بإمكان نور الدين ، أكثر أعدائنا قوة ، أن يحاصر المملكة بالابحار خروجا من مصر بأسطوله الضخم ، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه برا وبحرا ، وكان الشيء الذي يخشى منه أيضا هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقه طريق الحجاج القادمين إلينا ، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الإطلاق ، ولذلك ارتوي أن من الملح إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات السامية في الكنيسة إلى أمراء الغرب لتعرض بالعناية المثلى المحنة المفرطة التي كانت المملكة ترضح تحتها ، مع مآسي الشعب المسيحي والكوارث الرهيبة التي كانت تهدد الرهبان ، واختير لتولي القيام بهذه المهمة وبالاجماع كل من البطريرك وهيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ووليم أسقف عكا وكانا رجالا مبدعين وموهوبين بحكمة وفصاحة مقنعة ، وهكذا أبحروا وحملوا معهم رسائل من الملك وجميع الأساقفة إلى فريديريك امبراطور الرومان ، ولويس ملك الفرنجة ، وهنري ملك الانكليز ووليم ملك صقلية ، وأيضا إلى النبلاء المشهورين الكونتات : فيليب أوف فلاندرز وهنري أوف ترويز وثيوبولد الثاني أوف تشارترز ، لا بل بالفعل إلى جميع النبلاء العظماء الآخرين في الغرب إلا أن عاصفة عنيفة هبت فجأة في الليل بعد رحيلهم فقتلت السفينه هنا وهناك وكسرت المجانيف وحطمت السواري ، وعاد المبعوثون بعد ثلاثة ايام مذعورين جدا ، وكانوا قد نجوا بصعوبة من الفرق . ولذلك ، اختير وفد آخر وأرسل بدلا عن الوفد الاول ، وكان يتألف من فريديريك رئيس اساقفة صور الذي تم اقناعه أخيرا بقبول المهمة بوساطة التوسلات الملحة للملك والنبلاء ، ويوحنا اسقف بانياس ، وهو اسقف مساعد لتلك الكنيسة ذاتها ، وبدأ الاثنان رحلتهم في ظل بشائر أكثر يمينا ، ووصلا إلى مقصدهما بعد رحلة ميمونة بيد انهما لم يحققا سوى القليل في المسألة التي اوكلت اليهم ، فقد توفي

الاسقف في باريس بعد وصوله الى فرنسا مباشرة وعاد رئيس الاساقفة بعد إقامة مدة عامين في الخارج دون أن ينجح في مهمته.

١٣ - الامبراطور المتلهف لتنفيذ المعاهدة يرسل أسطولا الى سورية بقيادة بعض نبلائه.

انقضى ذلك الصيف دون وقوع أي حدث يستحق التدوين ، وفي بداية الخريف اللاحق أرسل الامبراطور - المهتم كثيرا باتفاقيته - الاسطول الذي وعده ، وذلك تنفيذًا للمعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك تنفيذًا لاقتراحنا ورغبتنا ، ويجب الثناء كثيرا على الامبراطور و كان في هذه القوة البحرية مئة وخمسون سفينة حربية مجهزة بالمناكير ويصفوف مزدوجة من المجازيف . وتعرف هذه السفن باسم شواني ، وكانت مصممة للاستخدام خصيصا في الحرب ، وكان يوجد إضافة الى ذلك ستون مركبا ضخما جيدة التسليح كانت قد صنعت لنقل الخيول بفتحات كبيرة في مؤخراتها لتصبح أكثر مواءمة في تحميل الحيوانات وتفريغها ، وكان فيها جسور يستطيع بوساطتها الرجال والخيول الصعود والنزول من السفينة بسهولة ، وكان الاسطول يشتمل أيضا على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى درومونس تم تحميلها حتى التخمّة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع ، كما تم تحميلها أيضا بالاسلحة من كل صنف بالاضافة الى آلات الحرب ومعداته.

وعين الامبراطور واحدا من نبلائه وأقربائه يدعى ميغال دوكاس (٢٥٧) قائدا للاسطول بأكمله وكان بمرافقته نبيل آخر يدعى موريس وكان يحتل مكانا ساميا ومحط ثقة مولاه الامبراطور ، وكان الامبراطور يعتمد كثيرا على خبرة هذا الرجل ، ووضح هذا بشكل جلي عندما عين موريس مسؤولا عن جميع شؤون الامبراطورية ، وانضم الكونت الكسندر أوف كونفير سانا الى هاتين الشخصيتين في القيادة ، وكان نبيلًا من ابوليا ، وكان

الامبراطور يخصه بعاطفة صافية بسبب الاخلاص العميق والصادق الذي اظهره الكونت نحوه.

سلمت قيادة الجيش الامبراطوري الى هؤلاء النبلاء الثلاثة عندما بعث الجيش الى منطقتنا في الشرق ، وفي حوالي نهاية شهر ايلول نزل الاسطول ميناء صور بعد رحلة ميمونة ، وتقدم من هناك الى عكا وألقى مراسيه في مكان هادئ واقع بين النهر والميناء.

١٤ - الملك يتوجه مع جيشه الى مصر . الاغريق يرافقونه بقوات برية وبحرية.

أمر الملك الجيش بأكمله من اللاتين والاغريق بسالتجمع في الخامس عشر من شهر تشرين الأول في مدينة عسقلان وذلك بعدما رتب أمور المملكة وترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال غيابه من خطط نور الدين ومطامعه لأنه كان ما يزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق ، وذلك في العام ١١٦٩ لتجسيد الرب الذي كان العام الثامن والستين لتحرير المدينة والعام السادس من فترة حكم الملك عموري (٢٥٨) وكان الاسطول قد أبحر قبل عدة أيام من ميناء عكا متوجها يريد الأراضي المصرية.

انطلق الجيش في السادس عشر من شهر آب ، (٢٥٩) وتقدمت القوات بزحف بطيء في سبيل عدم انهك قوات المشاة أكثر من اللازم ، واستخدمت أماكن كثيرة للتوقف حيث كان الماء متوفرا فيها ، وفي اليوم التاسع وصلت القوات الى مدينة الفرما القديمة وكانت ترغب بسلوك الطريق الساحلي ، إلا أن حدثا وقع مؤخرا جعل من الضروري اتباع الطريق الداخلي الأطول ، لأن بعض السدود الواقعة بين السهل والبحر المجاور كانت قد تخربت بسبب ضرب الأمواج المستمرة وشقت المياه ممرا لها بالقوة عبر السدود

المقابلة ، وبما أن الماء قد تدفق الآن بحرية فقد غمر الطريق المؤدي الى السهل الواقع وراءه ، فشكلت المياه المتجمعه بركة ضيقة في أول الأمر ولكنها ما لبثت أن توسعت كثيرا فغمرت السهل بأكمله ، وجلب تدفق البحر هذا معه كمية كبيرة من السمك ، بحيث تم منذ ذلك الحين فصاعدا توفير زاد من ذلك النوع من الطعام بوفرة لم يكن يحلم بها من قبل ابدا ، ليس فقط للمدن الواقعة في تلك المنطقة المجاورة ، بل أيضا للمدن الأكثر بعدا ، وبما أن البحر غمر المنطقة الواقعة على طول الساحل ، فإن المسافرين الذين عزموا على الذهاب الى مصر بواسطة الطريق الساحلي أجبروا على السير عبر تحويلة طولها عشرة أميال أو أكثر حول هذه البركة وذلك قبل أن يتمكنوا من العودة الى الطريق.

لقد قدمت هذ التفاصيل بسبب جدة هذا الحدث المدهش ، وأيضا لأن هذه المنطقة الصحراوية التي كانت معرضة لحرارة الشمس الشديدة فيما مضى ، قد غمرت الآن بالماء نتيجة التدفق المستمر للبحر ، وتردد الآن اليها اصحاب الزوارق ، فامتلات هذه المنطقة ، التي أصبحت خصبة جدا بشباك صيادي الأسماك وأعطت غلالا لم تكن معروفة حتى الآن.

إن مدينة الفرما ، المشار اليها آنفا ، خالية من السكان الآن ، لكنها كانت فيما مضى مقرا لعدد كبير من السكان ، وتقع على الحد الصحراوي بالقرب من الدلتا وهي اللسان البحري الأول للنيل في موقع يصب فيه ذلك الفرع من النهر في البحر . ولذلك فهي تقع بين النهر والبحر والصحراء . ومع ذلك ، فهي تبعد ثلاثة أميال عن مصب النيل.

وجد جيشنا عندما وصل الى الفرما أن الأسطول كان قد سبقه اليها ، وتم على الفور تأمين الجذفين اللازمين ، وهكذا جاز الجيش بأكمله الى الضفة المقابلة ، ثم تقدم الجيش بعد أن ترك

تفيس على يساره - وهي التي كانت سابقا مدينة مهيبة ، وليست الآن سوى بلدة صغيرة - مسافة عشرين ميلا تقريبا على طول طريق واقع بين أحد المستنقعات والشاطيء وأخيرا وصل الى دمياط بعد مسيرة يوميين .

١٥ - الملك يحاصر دمياط . جيشا اللاتينيين والأغريق يجهدان أنفسهما في حصار تلك المدينة دون نتيجة .

تعتبر دمياط من أقدم المدن المصرية وأشهرها ، وتقع على ضفة النيل على مسافة قريبة منا ، وفي الموقع الذي يندفع فيه النهر إلى البحر بواسطة مصبه الثاني ، وهي واقعة على نحو موائم بين النهر والبحر الذي تبعد عنه نحو ميل واحد ، ووصل جيشنا إلى دمياط في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول ، وعسكر بين المدينة والبحر منتظرا وصول الأسطول الذي عاقت تقدمه الأمواج العاتية والرياح المعاكسة ، وبدأت الأمواج المضطربة بعد ثلاثة أيام ، واستغل الأسطول رياحا مواتية ودخل النهر وألقى مراسيه في ميناء هادىء على طول الساحل في منتصف المسافة بين المدينة والبحر .

ووقف برج مرتفع على الضفة المقابلة ، وكان محميا بشكل جيد بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كان عددهم كافيا لتقسيم الحماية التامة له ، وامتد سلسلة حديدية من هذا البرج إلى المدينة منعت تماما العبور إلى القسم العلوي من النهر ، وبرهنت بأنها عائق كبير لقواتنا ، إلا أنه كان بإمكان جميع السفن القادمة من الأعلى من القاهرة وبابليون العبور إليهم بحرية وبدون عائق .

انتقلت القوات ، بعدما كان الأسطول قد وضع في موقع موائم ، عبر البساتين التي انتشرت بين موقع مخيمها والمدينة نفسها ، ونصبت خيمها بالقرب من دمياط تماما . حيث كان الطريق إلى

الاسوار طليقا ، لكنها أرجأت شن الهجوم حتى تكون قد انقضت ثلاثة أيام ، ولهذا تعلمت بالتجربة صحة القول : « من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزا (٢٦٠) لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لا يحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين ، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط ودون أن يستطيع فعل شيء ، وذلك بينما امتلات المدينة حتى التخمة بعدما كانت عمليا فارغة في وقت سابق ، واتضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق ، مع أنها بدت لدى وصولهم إليها أنها لن تتمكن أبدا من الصمود أمام الهجوم الأول .

وبناء عليه جرى اختيار الحرفيين وتأمين المواد المناسبة ، ثم شيد برج شامخ مؤلف من سبعة أدوار - على حساب الكثير من الانفاق والعمل - يمكن من قمته مراقبة المدينة بأسرها ، وشيدت آلات أخرى من مختلف الأنواع ، وقد صمم بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الاسوار ، وأخرى لحماية الملمغمين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكانهم داخل كهوف مخفية ، ومن ثم حفر أنفاق سرية تحت الاسوار مما سبب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاستناد .

وكانت الطرق المؤدية إلى المدينة قد مهدت في هذه الأثناء بطريقة جيدة ، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية ، التي شيدت الآن بالاسوار ، وواصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرك الضغط باستمرار على المحاصرين ، وقذفوا بلا انقطاع وابلا من السهام والقذائف الحجرية بالإضافة إلى أسلحة أخرى بقدر ما سمحت لهم ضراوتهم والرقعة المحددة ، وفي الوقت نفسه أطلق الرجال الموضوعون في آلات القذف وابلا من الصخور الضخمة ، وبذلوا جهودا حماسية لتدمير الاسوار والمنازل الملصقة بها .

وحاول سكان المدينة أن يواجهوا الخدعة بالخدعة لدى رؤيتهم

لهذه المحاولات ، ولكي يقاوموا جهودنا ببراعة مماثلة ، شيّدوا برجاً عالياً مقابل برجنا وزودوه بجنود مسلحين توجب عليهم أن يقاوموا جهودنا من داخل آلة حربية مشابهاً ، وأن يردوا على هجماتنا بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة ، وهكذا وضعوا الاتهام الحربية مقابل الاتنا وبنلوا جميع الجهود لتدميرها ، كما أن الحاجة للدفاع عن أنفسهم طورت الخبرة لديهم ، وأمدتهم الضرورة بالقوة ، واخترع الذين كانوا قد شعروا حتى هذا الوقت بأنهم غير أكفاء للمقاومة ، والذين حثتهم الحاجة ، اخترعوا خطأ لم يفكر بها أحد حتى الآن ، وأصبحت أذهان حتى الأشخاص الأكثر غباءً نشيطة في استنباط وسائل لضمان سلامتهم ، وتعلموا بتجربة اليمّة صحة القول : « المحنة تطور الدهاء » (٣٦١) .

وبدأ المسيحيون يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجب عليهم أن يشددوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل ، ونسب تغير المعنويات هذا إلى الخيانة ، ونسبه آخرون إلى مجرد إهمال واستخفاف ، واتضح على الفور أن جنودنا كانوا يبدون براعة وحصافة أقل من المعتاد ، أو مهما يكن من أمر فقد كان الذين يستلمون زمام القيادة يتصرفون بنية خائنة فقد أمروا بإلصاق أحد الأبراج ، التي شيّدت مؤخراً ، بالأسوار في موقع منحدر ولايرام تقريبا ، فقد كان هنالك في ذلك القسم نفسه من المدينة مواقع كثيرة كان السور فيها أكثر انخفاضا وأقل قوة حيث كان من الأسهل كثيرا الاستيلاء عليه ، ومع ذلك وضع البرج المتحرك في الموقع الأقوى والأفضل تحصينا في مكان لم يقدم سوى الكثير من الصعوبات أكثر مما قدمه أي موقع آخر لوضع الآلات الحربية فيه ، وعلاوة على ذلك ، كان الضرر من ذلك الموقع لن يوجه إلى سكان المدينة أو إلى مبانيهم ، بل إلى كنيسة أم الرب المقدسة فقط ، التي كانت تقع بالقرب من الأسوار .

لا يمكن أن يكون هنالك أي شك أن التأجيل في مهاجمة مدينة دمياط فور وصولنا قد نشأ عن نية شريرة ، فقد كانت المدينة في ذلك

الوقت مهجورة تقريبا ، ولم يكن يشغلها سوى سكانها الذين كانوا
أناسا ضعفاء ومسالين وجاهلين تماما بفن الحرب . ولو هاجم
المسيحيون المدينة بشجاعة على الفور ، كما كان ينبغي عليهم أن
يفعلوا لتم الاستيلاء عليها في الهجوم الأول ، لكن المحاصرين منحوا
فترة راحة ، فازداد عددهم كثيرا خلال ذلك الوقت بتعزيزات من
المقاتلين الشجعان والأشواس . وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن
يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها ، بل حتى في ميدان
القتال خارجها .

١٦ - انتشار مجاعة في المعسكر . أسطولنا ينجو
بصعوبة من الدمار والنار . رفع الحصار بعد التأكد
من أن جميع جهودنا كانت عقيمة .

في هذه المرحلة الحاسمة أضيفت محنة أخرى إلى متاعب
المسيحيين ، فقد بدأ الاغريق الآن ، الذين كانوا قد أتوا بأعداد
كبيرة في ذلك الأسطول ، يعانون من نقص في المؤن ، فقد كان زادهم
من الخبز قد نفذ تماما ولم يبق لديهم بالفعل أي نوع من الطعام ،
وحدث أن أيكة من أشجار النخيل ، كانت موجودة بالقرب من
المعسكر ، كانت قد قطعت لتستخدم في طرق مختلفة ، وعندما سقطت
الأشجار بحث الاغريق الجائعون عن لقمة طرية نامية في القمة حيث
تنبع الأغصان فتزودهم بالنسغ ، وبما أنها كانت مادة تؤكل ، فقد
زودتهم بنوع من الطعام خفف - وإن كان ضئيلا بقيمته
الغذائية - من لسعات الجوع ، وجعلت حالة الجوع هذه هؤلاء
الناس ماهرين في البحث عن الطعام ، وطورت متطلبات المعدة
الشديدة الجوع براعتهم لتزويدها باحتياجاتها ، ولقد تسبروا
أمورهم لبضعة أيام بأدسة وعاشوا على هذا الطعام وسد آخرون
من بينهم وأشخاص لم يكونوا معوزين تماما ، متطلبات الجوع
بالشوفان والزيبب والكستناء ، كان لدى المسيحيين زاد كاف من
الخبز والمؤن الأخرى المتعددة الأنواع ، وكانوا يوفرون مخزونهم

القليل لأنهم كانوا منتبهين للمستقبل ، لأنهم لو كانوا مسرفين بما يكفي لمشاركة المؤن مع الذين لم يكن لديهم شيء منها ، لكان هناك خطر من أنهم أنفسهم قد يقعون في فاقة يوما ما ، وعلاوة على ذلك فإنهم لم يكونوا واثقين من طول فترة الإقامة التي سوف يمضونها أمام دمياط ، وتوقعوا أنها طويلة الأمد .

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في هذا الوقت ، وكانت الأعاصير عنيفة جدا لدرجة أن الناس الأكثر فقرا لم يتمكنوا من منع الماء من التساقط خلال خيامهم بأية وسيلة ، ولم تكن حال الأغنياء أفضل من حال الفقراء ، فقد تبللت سرايقهم بالمطر الغزير ، أو بالحري الأمطار المنهمرة من السماء . ولم يتمكنوا من الحصول حتى على وقاء بسيط إلا بحفر خنادق حول الخيام لابعاد فيضانات الماء .

حلت بهم الآن كارثة خطيرة أخرى ، فقد كانت الشواني والسفن الأخرى التي تم جلبها من البحر إلى النهر ، ووضعت بالقرب من المدينة في موقع كان آمنا تماما بشكل واضح ، بيد أن سكان المدينة ، اندفعوا بعدما أدركوا أن الريح كانت تهب من الجنوب ، وأن أمواج النيل تندفع بعنف كبير ، فانتهزوا الفرصة لتنفيذ خطة كانوا قد فكروا بها من قبل ، فقد أخذوا قاربا من الحجم العادي وملاوه حتى التخمة بخشب جاف وقطران وجميع المواد القابلة للاشتعال والتي تؤجج النيران ، وأشعلوا النار فيه ، ثم قذفوه في النهر فتناقلته الأمواج بإرابتها نحو أسطولنا ، وانتقل اللهب بسرعة إلى الوقود الذي كان محملا في القارب بعدما دفعته ريح جنوبية ، فأبحر المركب المحترق نحو الأسطول ، وتوقف بين سفننا المجمععة بإحكام وبقي هناك بشكل ثابت ، فنقلنا الحمولة الملتهبة بهذه الطريقة إلى سفننا واحترقت ست سفن متقاربة من نوع الشواني احتراقا تاما ، ولو لم يكن الملك يقظا لكان الأسطول بأكمله قد حوصر بلهب السنة النيران التي ازداد عنفها ، فقد اكتشف الملك الحريق ، فامتطى جواده بسرعة بون أن ينتظر حتى لانتعال حدائه ، وأيقظ البحارة وطلب

منهم بصيحات مذعورة وإشارات أن يخدموا السنة النيران ، فنجحوا في تنفيذ هذا بفصل السفن عن بعضها بعضا ، وهكذا تمت السيطرة على السنة النيران المنتشرة في كل مكان ، وانقذت على الفور كل سفينة حدث أن اشتعلت فيها النيران بسبب الشر المتطاير من المواد المشتعلة الأخرى التي نقلتها الرياح ، وذلك باستخدام ماء النهر الذي كان لحسن الحظ قريبا جدا .

شنت الهجمات على المدينة على فترات لعدة أيام ، وكان النصر تارة حليفا للمسيحيين وتارة أخرى حليفا للكفرة كما يحدث عادة عندما تكون نتيجة المعركة مبهمة ، وعلى العموم كان المسيحيون هم الذين يتحدثون أعداءهم للنزال ونادرا ماقاتل المسلمون ما لم يثاروا ، هذا وحدث أن انطلق المحاصرون عندما كانوا يشعرون بالثقة أحيانا من باب خلفي مقابل معسكر الاغريق وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش ، ومن المحتمل أنهم سمعوا أن القوات الاغريقية كانت أقل قوة من قواتنا ، وربما وصلتهم أنباء الشائعات التي تحدثت أنهم كانوا واقعين في محنة مريرة بسبب الجوع ، ولذلك كانوا أقل قدرة على صد الهجوم ، ومع ذلك حارب ميغال بوكاس وبقية الاغريق - على الرغم من هذا العائق - بشجاعة وبسالة وبنظام قتالي . كما أن ذوي المراتب الأدنى تشجعوا بالمثل الذي ضربه أسيادهم فهاجموا الأعداء مرارا وتكرارا بقوة فريدة وصمدوا بجرأة .

هذا وازدادت قوة المحاصرين باستمرار بواسطة فرق كبيرة كانت تصل إليهم دائما عن طريق البر والبحر . ونتيجة لهذا أصبح سكان المدينة يشكلون مصدرا لذعر كبير لأعدائهم أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم وذلك على الرغم من أنهم كانوا مقيدين ضمن مدينة كانت واقعة تحت الحصار بدأ التذمر ينتشر بين الناس ، وبات جميع الناس يشعرون أن جهودنا قد تبسدت وصار الرأي العام مجمعا على أن الحملة قـ

نفذت ضد ارادة الرب ، ولذلك فقد أشاح بوجهه عنا بغضب ، وأنه من الأفضل بكثير أن نعود الى الوطن بدلا من أن نتعرض للانهاك في مصر بسبب المجاعة ، أو أن نهلك بسيوف الكفرة ، وهكذا عقدت اتفاقية بشروط سرية يفضل الجهود المشتركة لبعض قادتنا وبعض الحكام الأتراك ، وبشكل ملحوظ يفضل الدور الفعال لزعيم اسمه جيفيليو . ووافق الاغريق على التسوية نفسها وأعلن السلام على الفور بصوت المنادي(٢٦٢)

١٧- الغاء الحملة وعودة الملك الى أراضيه . دمار جميع الأسطول الاغريقي تقريبا في رحلة العودة الى الوطن بسبب رياح معاكسة .

ثم خرج سكان المدينة وحلفاؤهم الذين قدموا لمساعدتهم لزيارة معسكرنا بحرية ، كما سمح لعدد من جنودنا ، كانوا يرغبون بشيء مشابه ، بالمرور ذهابا وإيابا بين المدينة والمعسكر دون عائق ، واستطاع الطرفان في آخر الأمر أن يتاجرا بحرية مع بعضهم بعضا ، حيث سمح للجميع بالشراء والبيع والمقايسة كما يشاؤون ، وهكذا ، استخدم المسيحيون السوق بالاشتراك مع الكفرة لمدة ثلاثة أيام ، وأعدوا جميع تحضيراتهم للزحف ، ثم خربوا الآلات الحربية وأحرقوها ، وقام الجيش البري بعد ذلك بالسير وراء الملك عائدا الى سورية ، وقد ساروا مسرعين وبدون توقف على الطريق الذي كانوا قد أتوا منها ووصلوا في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول الى عسقلان ، وخف الملك الى عكا بسبب اقتراب يوم العيد ووصلها عشية يوم ميلاد الرب .

هذا وأبحر الذين كانوا قد أتوا بالسفن وسط نذر مشؤومة وحظ تعيس ، فما أن شرعوا ، بالرحلة حتى هبت فجأة عاصفة

شديدة ، وعانوا من مخاطر البحر التي لا يمكن تجنبها لأن الأمواج حطمت السفن وألقتها الى الشاطئ ، وغرق الجميع تقريبا ، ولم يبق سليما من الاسطول الضخم الذي كان قد أتى الينا سوى بضع سفن كان بعضها كبير الحجم وبعضها الآخر كان صغيرا وتمكنت من العودة بدافع من قوتها .

ومع أن مبعوثي الامبراطور كانوا قد أبدوا الاجتهاد الكلي الممكن في الجهود التي بذلوها لانجاز المهمة الموكولة اليهم ، فإنهم اضطروا للعودة مخفقين ويشعرون بالأسى في قلوبهم ، بعدما روعتهم شدة القدر . لأنهم خافوا من أن يحملهم جلالته الامبراطورية - بشكل يفوق استحقاقهم - مسؤولية النتيجة المشؤومة للحملة ، فقد كان من المحتمل أن يعزو هذه النتيجة بشكل جائر الى إهمالهم ، أو سوء إدارتهم على الرغم من أن هذه النتيجة بأكملها كانت بسبب قدر محتوم .

أتذكر أنني أجريت بعد عودتي تحقيقا دقيقا وجادا حول الملك وحول بعض الرجال المهمين في المملكة وعن سبب أن حملة ضخمة جدا كهذه كانت تحت قيادة أمراء بارزين للغاية ، قد انتهت بشكل مشؤوم جدا ، وكان اهتمامي في ذلك العام قد تركز حول أموري الخاصة ، حيث كنت قد ذهبت الى روما لتجنب العداوة الجائرة لرئيس الاساقفة الذي كنت تابعا له (٢٦٣) و حاولت لدى عودتي أن أبحث في الجوهر الحقيقي للقضية ، وسعيت الى كشف الحقيقة الفعلية بالاستماع الى روايات شديدة الاختلاف ، لأن نتائج الحملة كانت مختلفة تماما عما كنا قد رجونا ، واستخدمت حذرا كبيرا في هذه المسألة لأنني كنت قد درست فكرة تدوين تاريخ لهذه الأحداث وقد وجدت أن الاغريق غير معفين من اللوم ، فقد كان الامبراطور قد وعد بإخلاص في أن يرسل مبلغا كافيا من المال لدعم الجيش الضخم ، الا أن وعوده أثبتت أنها غير جديرة بالثقة في ذلك الخصوص ، وقد بدأ قائده يعانون من وطأة الحاجة من اللحظة التي ذهبوا فيها الى مصر ، وفي الوقت الذي كان عليهم أن يكونوا قادرين

على تأمين حاجات الآخرين من المخزون الامبراطوري الكبير توجب عليهم أن يبحثوا عن المال لتوفير الطعام والمدفوعات أيضا حتى لفيالقوم ، ولم يعطهم ذلك أي انسان .

١٨- زلزال كبير يهز عمليا جميع بلاد الشرق . المدن القديمة يلحق بها الدمار .

ضرب زلزال مخيف وكبير الشرق ، وكان أكثر عنفا من أي زلزال آخر محفوظ ضمن ذاكرة الرجال الموجودين الآن على قيد الحياة وذلك في شهر حزيران (٢٦٤) من الصيف التالي ، اي في العام السابع من فترة حكم الملك عموري ، وقد دمر هذا الزلزال مدنا محصنة تحصينا قويا ومشيدة من ازمان قديمة جدا ، وسحق السكان الذين احتجزوا داخل منازلهم المهدمة ، ولم يبق على قيد الحياة سوى القلة القليلة من الناس ، ولم تنج اي بقعة ضمن المنطقة بأسرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات أو بكارثة عائلية ، فقد امتلاك مكان بدلائل الحزن وبجناز الموتي ، كما دمرت المدن الكبرى في اقاليمنا واقاليم سورية وفينيقية أيضا وكانت مدنا مشهورة طوال عصور بقدمها المهيبة . فقد سحقت في سورية المجوفة مدينة أنطاكية عن بكرة أبيها وهي التي كانت عاصمة لاقاليم عديدة والتي كانت فيما مضى رئيسة لممالك كثيرة ، وأبيد سكانها عن بكرة أبيهم ، ودمرت الاسوار الضخمة والأبراج العملاقة والشديدة القوة المبنية على طول محيطها ، وهدمت كنائس ومبان من كل نوع بعنف كبير لدرجة أنها لم ترمم حتى الآن الا بشكل جزئي على الرغم من إيقاف جهد كبير ونفقة واسعة لترميمها ، وكان بين المدن الأخرى التي دمرت في ذلك الاقليم كل من جبلة واللاذقية وهما مدينتان مشهورتان واقعتان على الساحل ، وكان من بين المدن الداخلية البعيدة التي دمرت والتي كان العدو ما يزال محتفظا بها كل من بيروا المعروفة أيضا باسم حلب ، وشيزر وحماة وحمص ومدن أخرى ، كما أن عدد القلاع المدمرة كان يفوق الاحصاء .

أصبحت مدينة طرابلس العظيمة والمزدحمة بالسكان والواقعة في فينيقية فجأة في التاسع والعشرين من حزيران في حوالي الساعة الأولى من اليوم بهزة أرضية كانت عنيفة لدرجة أنه نادرا ما نجا منها انسان ممن كان موجودا ضمن أسوارها ، وتحولت المدينة بأسرها الى أكوام من الحجارة ، وأصبحت مقبرة لابل قبيرا مشتركا للسكان الذين هلكوا فيها ، وكانت الهزة الأرضية عنيفة جدا في مدينة صور المدينة الأكثر شهرة في هذا الأقليم ، حيث دمرت عدة أبراج ضخمة غير أنه لم تقع أية خسائر بشرية هنا ، وعثر في مناطقنا ومناطق العدو على قلاع نصف مدمرة ومفتوحة على جميع الجهات و عرضة بكل حرية لعنف و خداع الخصم ، ولم يجرؤ أحد على التحرش بزميله الانسان لأن الجميع خافوا من أن ينزل بهم غضب الحاكم الجبار كل على حدة ، ولانشغال كل واحد منهم بمشاكله الخاصة ولأنه كان مرهقا بحمل أعباء أموره الخاصة ، ولهذا السبب لم يفكر أحد في إيذاء جاره .

وحل السلام ، الذي أحدثته رغبة الجميع ، وإن كان لفترة قصيرة من الزمن ، وأعدت هدنة بسبب الخوف من الغضب الالهي ، وكف الجميع عن القيام بأعمال العدوان وقمعوا بواعثهم الشريرة ، بينما كان كل منهم يتوقع كل لحظة انصباب غضب عادل من السماء عقابا على آثامهم .

لم يكن هذا الاظهار لسخط الله شيئا سريعا الانقضاء كما كان يحدث دائما ، فقد ظل الناس يشعرون ليل نهار بذلك الزلزال المخيف لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر بالفعل لابل حتى لفترة أطول من ذلك بثلاث مرات أو أربع أو أكثر ، وكانت كل هزة مصدرا للرعب الآن ، ولم يعثر على أي مكان آمن للراحة ، وحتى أثناء النوم دفع الشعور الخفي المذعور بصورة ذلك الشيء الذي أخافه أثناء اليقظة الى الوثوب قافزا نحو الشعور الواقعي من جديد(٢٦٥).

وتجنبنا الأجزاء العليا من إقليمنا - أي من فلسطين - هذه الكوارث بفضل العناية الرحيمة لله الوافي .

١٩- صلاح الدين يغزو أراضينا ويحاصر قلعة الداروم .

في شهر كانون الأول من هذا العام نفسه ، أي العام السابع لفترة حكم عموري (٢٦٦) انتشرت شائعة كبيرة بين الناس أفادت أن صلاح الدين كان على وشك القيام بغزو بلادنا ، وذكر اعتمادا على مصادر كثيرة أنه كان قد حشد قوات من جميع أنحاء مصر ومن أراضي دمشق أيضا ، وأنه زاد أعداد أتباعه كثيرا بتجنيد جنود من « الطبقتين » الوسطى والدنيا ، وأنه كان يخطط للزحف نحو فلسطين ليهدم المنطقة ، فذهب الملك حالما بلغه هذا النبأ الى منطقة عسقلان ، وعلم هنالك بشكل قاطع من معلومات موثوقة تلقاها من شعبه أن هذا الأمير القوي والعظيم كان يحاصر قلعة الداروم منذ يومين مضيا بجيش ضخم أقوى من ذي قبل . وأنه لم يمنح في تلك الاثناء أية راحة للمحاصرين ، وكان قد ألحق بهم أضرارا كبيرة ، فقد كان جنده قد أمطروا وابلا من السهام بشكل مستمر على الموجودين في داخل القلعة الى درجة أصيب فيها الجميع بجراح ، ولم يعد هنالك سوى عدد قليل قادر على حمل السلاح للدفاع عن القلعة ، وكان السور قد تقوض وفتح بالقوة ، وبات صلاح الدين مستوليا على جزء من الموقع ، وقد لجأ سكان المدينة بحكم الضرورة الى القلعة التي بدت بأنها الجزء الأقوى تحصينا ، وكان العدو قد شق طريقه الى القسم السفلي من أحد الأبراج وأحرق المدخل ، غير أن المحاصرين كانوا مايزالون يدافعون عن الجزء العلوي . لقد كان هذا هو النبأ الذي حمل الى الملك وثبت أنه كان صحيحا .

وكان النبيل أنسلم دي باس قائد قلعة الداروم والمدافع عنها

رجلا ورعا ويخاف الرب ومقاتلا شجاعا ، ولو حدث وكان بعيدا. في اليوم الذي وقع فيه الهجوم ، لسقط بلا ريب في أيدي الأعداء .

ملأ نبأ هذا الوضع الخطير قلب الملك بالحزن والغضب ، فجمع على الفور قوات المشاة والفرسان من سائر الأنحاء بقدر ما سمح المجال الزمني القصير وقرب العدو ، وغادر عسقلان في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر نفسه وأسرع نحو غزة ، ورافقه السيد البطريك الذي حمل صليب الصليبوت النفيس المانح للحياة ، ورافقه أيضا رجلان ميجلان هما رالف أسقف بيت لحم ، المستشار الملكي ، وبرنارد ، أسقف اللد ، كما صاحبه عدد آخر ضئيل من نبلاء المملكة ، ولدى احصاء القوات وجد أنها كانت تتألف من مئتين وخمسين فارسا ونحو ألف جندي من المشاة .

أمضت القوات ليلة أرق في غزة ، وهي تجر الساعات المملة منهكة بعبء القلق العميق ، وانطلقت من غزة مع شروق الشمس في الصباح التالي ، وانضم فرسان الداوية الذين كانوا قد أتوا الى هنا لحماية الموقع ، بقواتهم اليها ، وتقدم الجميع معا نحو قلعة الداروم .

أعتقد أن هذه القلعة كانت واقعة في أبوميا ، أي أبوم ، فيما وراء النهر المسمى باسم نهر مصر ، الذي يرسم الحدود بين فلسطين والمنطقة المذكورة منذ لحظات ، وكان الملك عموري قد شيد قبل بضع سنوات من هذه الآونة هذه القلعة على موقع مرتفع بعض الشيء فوق الخرائب القديمة ، التي ما تزال بعض أثارها باقية ، وتحكي التقاليد المنقولة عن السكان القدماء لهذه المناطق أنه كان هنالك دير للروم الاغريق في هذا الموقع في الأزمان القديمة كما أن اسم داروم الحالي للموقع ، أي « دار الروم » يذكر بتلك الحقيقة ويشهد على صحتها .

كان الملك ، كما ذكرنا من قبل ، قد أمر ببناء قلعة ذات أبعاد

معتدلة في هذا الموقع ، لم تغط مسافة زانت على مرمى حجر من الأرض ، وكانت مربعة الشكل ، وكان يوجد برج في كل ركن من أركانها ، وكان أحد هذه الأبراج أضخم من باقي الأبراج وأفضل تحصينا ، ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها .

وتقع الداروم على بعد نحو خمسة أميال من البحر وأربعة أميال من غزة ، وتجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة . وبنوا قرية وكنديسة على مقربة من القلعة ، واتخذوا مقر سكناهم هناك ، ولقد كان موقعا بهيجا توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا أفضل مما كان في المدن (٢٦٧)

كان الملك قد بنى هذا الحصن لكي يوسع حدوده ، وكان في ذهنه حقيقة أنه باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنويا ، من سكان القرى المحيطة الذين يدعوهم شعبنا باسم « كاساليا » كما كان يمكن أيضا فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق .

٢- الملك ينطلق بسرعة الى هناك ومعه مجموعة صغيرة من الفرسان . العدو يقتل عددا كبيرا من شعبنا في كل من مدينة غزة وأثناء السير .

وهكذا انطلق جيشنا من غزة . وبينما كان متوقفا على مرتفع صغير على طول خط السير لمح معسكر العدو ، فأخافته أعداده الكبيرة فشرعت عناصره تحتشد مع بعضها وتتكتل أكثر من المعتاد وكانت محصلة هذا التكتل أن صفوفهم المضغوطة حالت الى حد بعيد بون احراز اي تقدم اضافي ، فهجم الكفرة على الفور وحاولوا تفريقهم ، لكن المسيحيين احتشدوا وتكاتفوا بفضل المساعدة

الالهية بإحكام أكثر وقاوموا هجوم العدو ، ثم ساروا بخطوات سريعة قدما نحو غايتهم حيث توقف الجيش بأسره ونصب خيامه ، وذهب السيد البطريرك الى القلعة ، وخيم الباقون جميعا في الخارج بالقرب من أطراف القرية ، وكان الوقت عندئذ حوالي الساعة السادسة من اليوم ، وحدثت معارك فردية كثيرة في غضون ذلك اليوم بالاضافة الى بعض الاشتباكات التي شاركت فيها مجموعات كاملة ، وأظهر جنودنا شجاعة كبيرة في الهجوم والمقاومة على حد سواء ، ومع حلول الظلام نظم صلاح الدين صفوفه بتشكيل الزحف وقادها نحو غزة ، واستراح في تلك الليلة بالقرب من النهر ، وواصل زحفه في الصباح الى غزة وتوقف أمام المدينة .

كانت مدينة غزة القديمة جدا عاصمة مشهورة فيما مضى للفلسطينيين وقد ورد ذكرها مرارا في التواريخ المدنية والكنسية ، كما أن الأبنية الرائعة الكثيرة التي مازالت باقية فيها تعطي دليلا على روعتها القديمة . وكانت قد بقيت مهجورة لفترة طويلة من الزمن دون أن يقطنها أحد من السكان . حتى قام أخيرا بلدوين الثالث الملك الرابع للقدس صاحب الذكرى اللامعة ، بجمع قوات الملكة ومواردها وبنى على أحد أجزاء الهضبة حصنا قويا بشكل جيد الى ابعد الحدود (٢٦٨) وكان ذلك كله قبل ان يتم الاستيلاء على عسقلان . ولدى انتهاء هذا الحصن اعطاه لفرسان الداوية ليحتفظوا به بحق دائم . غير ان القلعة لم تشغل الهضبة بأسرها التي بنيت عليها المدينة كما تم ذكر ذلك ، وحاول الناس ، الذين أتوا الى هناك للعيش ، أن يحموا بقية القلعة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم . الا ان هذا السور كان منخفضا بعض الشيء ولم يكن قويا البتة .

عندما وصل نبأ اقتراب العدو الى الناس الساكنين على الهضبة ، قرروا اللجوء الى القلعة مع زوجاتهم وأبنائهم وأن يتخلوا عن الجزء الباقي وغير المحمي من المدينة الى العدو . لأنهم

كانوا مزارعين ورجالا غير مسلحين وغير معتادين أبدا على أشياء تتعلق بالحرب ، الا أن ميلون دي بلانسي الذي كان واحدا من النبلاء العظماء في المملكة ورجلا شريرا ، رغب في ان يشجعهم على المقاومة . ولذلك رفض السماح لهم بالدخول وأمرهم بالدفاع عن ذلك الجزء الأكثر ضعفا من المدينة .

وحدث ان كان في غزة مجموعة مؤلفة من خمسة وستين شابا من المقاتلين الشجعان مسلحين تسليحا خفيفا ، وكانوا من أهالي بلدة تدعى (البيره) Mahumaria بالقرب من القدس (٢٦٩) وكانوا قد وصلوا في تلك الليلة ذاتها الى غزة في طريقهم للانضمام الى الجيش ، وقد عينوا بأمر من ميلون لحماية باب المدينة الخارجي . وكانوا يقاتلون هناك بشجاعة دفاعا عن بلادهم وحريتهم ، ويقاومون بشجاعة محاولات العدو لشق طريقه بالسيف ، واقتحم الكفرة الموقع على المجموعة الصغيرة ، التي كانت ماتزال تدافع بقوة عن الباب وطوقوها بالكامل ، ولم يتمكن الآخرون من المقاومة لفترة أطول من ذلك بعدما يوغتوا وهلكوا بالسيف ، وعلى الرغم من مقتل عدد كبير من هؤلاء الشجعان واصابة الكثير منهم بجراح فان الأعداء لم يخرجوا من هذه المعركة سالمين ، لأن انتصارهم كان انتصارا دمويا .

قام سكان المدينة الآن بمحاولة أخرى لدخول القلعة ، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا داخل الأسوار وكانوا يقومون بمذبحة لتمييز فيها وفظيعة جدا في كل مكان ، فإنه لم يسمح لهم بالدخول ، ولم يحصلوا على أية وسيلة للنجاة ، واندفع الأتراك على الفور واستولوا على المدينة ، ولم تجر مراعاة لجنس أو لعمر ، وقذف حتى الأطفال الرضع الى الحجارة ، ومع ذلك ، فان الغضب اللامحدود للفريسيين زادا بدا عاجزا عن الاشباع ، ولقد ابقاهم اللاجئون الموجودون في البرج بعيدين عنهم بقذفهم بالحجارة والأسلحة الأخرى بشكل مستمر ، وهكذا ، بقي الحصن سليما بمساعدة الرب .

عاد الأعداء الى الداروم بعدما استولوا على المدينة وقتلوا السكان ، عادوا وكأنهم يرفعون أكاليل النصر ، وصادفوا نحو الخمسين من قوات رجالتنا كانوا يسيرون مسرعين نحو الجيش دون التقيد بالحذر المناسب ، فقتلوا هؤلاء دون استثناء وذلك على الرغم من أن المسيحيين قاتلوا بكل شجاعة بسيوفهم في محاولة يائسة منهم لانقاذ أرواحهم .

٢١- صلاح الدين يعود الى أراضيه . الملك يعود الى عسقلان بعد زيارة الداروم المخربة حاليا جزئيا . مقتل توماس رئيس أساقفة كانتبري في كنيسة في العام نفسه ، وهو شهيد رائع في المسيح .

عاب الأتراك صفوفهم الآن ووضعوها بترتيب المعركة حسب القانون العسكري ، وقسموا قواتهم الى اثنتين وأربعين فرقة ، وصدرت الأوامر الى عشرين فرقة من هذه الفرق بالتقدم بالطريق الساحلي بين الداروم والبحر ، وتوجب على الفرق الباقية أن تسلك الطريق البري حتى يتم اجتياز القلعة عندما تتحد القوات ثانية وتعود من جديد كتلة واحدة .

استعد المسيحيون لخوض المعركة أيضا بعدما تصوروا ان العدو كان عائدا بترتيب المعركة ، وصحيح أن أعدادهم كانت قليلة إلا أنهم وضعوا ثقتهم برحمة الرب ، واستعدوا للمواجهة بعد أن التمسوا المساعدة من عليين ، ومنحهم الرب قوة وشجاعة راسخة ، وما كان من شيء بدا لهم أكثر تأييدا من أن الأتراك قد عادوا ليحاربوهم . إلا أن نية الأتراك كانت مختلفة كل الاختلاف فهم لم ينعطفوا نحو اليمين أو اليسار بل عادوا بالسرعة الكلية الى مصر .

جلب رسل ثقة الآن نبأ أفاد أن العدو قد رحل دون نية

بالعودة ، وبناء عليه عاد الملك يوجهه الرب مع جيشه الى
عسقلان . وترك في الداروم قوة من الجند لتعيد بناء القلعة النصف
مخرّبة والتي توجب تحصينها بعد إعادة بنائها بقوة أكثر وحراستها
بعناية ، وقال الذين شهدوا حملات كثيرة في المملكة لم يحدث حسب
معرفتهم قط جيشا كبيرا من الأتراك مثل هذا ، وقد كان عدد
الفرسان وحدهم حسب إحدى الروايات نحو أربعين ألفا (٢٧٠)

واحتفل في حوالي هذا الوقت نفسه ، أي في التاسع والعشرين
من شهر كانون الأول بذكرى وفاة الشهيد الرائع القديس توماس
رئيس أساقفة مدينة كانتبري في انكلترا (٢٧١) وكان من سكان لندن
وكان قد أصبح في زمن ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري ذي الذكرى
المباركة ، رئيسا لشماسة تلك الكنيسة ، ثم استدعاه فيما بعد
هنري الثاني ملك انكلترا ليشارك في مسؤولية المملكة ، وكان
مخلصا وحكيما كمستشار ، وكان مدبرا متمكنا للمملكة
بأسرها ، وبعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد استدعي توماس بناء على
أمر الملك ليصبح رئيسا لأساقفة كانتبري وذلك كمكافأة على
خدماته ، فكافح بقوة واقدام في سبيل حقوق الكنيسة ضد الاستبداد
والشروع واضطر نتيجة لذلك الى الهروب الى فرنسا ليتجنب
اضطهاد الملك هنري ، وتحمل هنالك النفي لمدة سبع سنوات بصبر
بارز جدير بالمدح السامي ، ولدى عودته من هذا الغياب
القسري ، وبينما كان منتظرا الأمن الذي كان قد وعد به ، ذبح
بسيوف رجال أشرار في داخل الكنيسة ذاتها التي كان قد ترأسها
 بإرادة الرب ، فقد قتل بشكل شائن عندما كان يصلي من أجل
مضطهديه ، وكلل بدمه ولاقى مصير الشهادة الرائع ، وكان الرب
قد تجلى من خلاله في تلك الكنيسة ذاتها وفي كل مكان من المنطقة
بالفعل لينجز معجزات كثيرة جدا ، وبشكل يومي تقريبا لدرجة أن
أزمان الرسل بدت وكأنها قد عادت بالفعل .

٢٢- الملك يزور القسطنطينية بمرافقة بعض نبلائه . الامبراطور يفتقد عليه اعطيات كثيرة .

استدعى الملك في العام اللاحق ، الذي كان العام السابع (٢٧٢) من حكم عموري ، جميع نبلائه اليه ووضع امامهم احتياجات المملكة ، لانه أدرك أن اضطرابات كثيرة كانت تثقل كاهل المملكة ، وأن أعداء العقيدة المسيحية كانوا يتزايدون باستمرار ليس فقط في العدد والقوة بل في القوى والثروات ايضا ، هذا وكانت مملكتنا من جهة أخرى خالية تماما من القادة الحكماء والعقلاء ، حيث ان الجيل الشاب الذي كان يأخذ مواقع اسلافه كان ينمو في الشر ، فقد كان يحتل لون غاية أو نتيجة مواقع رجال بارزين ، وقد أخذ يبدد بطرق مخزية الميراث الذي تلقاه من آباءه ، وكانت المحصلة تدهور المملكة كثيرا بحيث اتضح ضعفها حتى لأكثر الناس غباء ، ولذلك فقد طلب الملك نصيحة نبلائه بخصوص طريقة معالجة هذه الحالات الشريرة وانقاذ المملكة ، فأجابوه بعدما تداولوا بين بعضهم ، وبالإجماع تقريبا « انه بسبب أماننا هوت المملكة في حالة يائسة كهذه حيث لم تعد تستطيع مهاجمة أعدائها ولاصد هجماتهم .» ونصحوا بوجوب التماس المساعدة من ملوك الغرب اقارعة هذه المشاكل ولم يكن لديهم أية خطة لمعالجة أخرى يقترحونها .

وهكذا تقرر وبناء على موافقة الجميع إرسال وفد مؤلف من رجال نوبي منزلة سامية الى ملوك الغرب ليشرحوا معضلات المملكة ويبيّنوا مصاعبها ويطلبوا مساعدتهم ، وصدرت الأوامر الى المبعوثين بوجوب زيارة البابا وكبار النبلاء وامبراطور الرومان وملوك فرنسا وانكلترا وصقلية واسبانيا وجميع الأمراء والحكام الآخرين المشهورين والتماس مساعدتهم في مكافحة المخاطر الوشيكة التي تهدد المملكة الآن ، وتقرر علاوة على ذلك اعلام امبراطور القسطنطينية بالوضع المتقلقل في المملكة ، لانه لقربه منا ولغناه أكثر من غيره يستطيع بكل سهولة تقديم المساعدة

المطلوبة . وتقرر بالتحديد أن يكون المبعوث المرسل الى الامبراطور شخصا موهوبا جدا بالحكمة والفصاحة والقوة المقنعة حتى يتمكن بلباقته ومقدرته من استمالة ذهن ذلك الملك العظيم ليستجيب لرغباتنا .

وبينما كانوا يتداولون حول اختيار شخص مناسب يتولى القيام بهذه المهمة الهامة كان الملك يتباحث مع بعض مستشاريه المقربين ، ثم وضع الملك أمام الحشد خطة كان قد تصورهما من قبل ، وهكذا أعلن أن مهمة ذات أهمية كهذه لا يمكن لأحد أن يتولى القيام بها غيره ، وأضاف أنه كان مستعدا لتحمل جميع الأخطار والمشقات لتأمين النجدة الضرورية جدا للمملكة ، وإرتبك كبار النبلاء لدى سماعهم هذا الاقتراح وقد امتثلوا بالاعجاب - واحتجوا أن المهمة شاقة جدا ، والأكثر من ذلك ، أن المملكة ستكون بحالة مزرية بدون وجود الملك فيها ومع ذلك أجابهم عموري قائلا : « فليحكم الرب ، الذي أنا وكيله ، المملكة وأما بالنسبة لي فانني مصمم على الذهاب ، ولايستطيع أحد أن يقنعني بإلغاء ذلك القرار » .

وبناء عليه انطلق برحلته في العاشر من شهر آذار وبصحبة موكب عظيم يليق بالجلالة الملكية مع مرافقة مؤلفة من عشر سفن ، وكان في موكبه وليم أسقف عكا والنبلاء التالي أسماؤهم من المملكة : غورموند صاحب طبرية ، وجون صاحب أرسوف ، وجيرارد دي بوني قائد القوات الملكية ، وروهارد حاكم القدس ، و رينودي نفنس ، و جرى إرسبال فيليب صاحب نابلس ، الذي كان قد تخطى عن منصبه كمقيم لفرسان الداوية أمام الركب برا ، وبما أن التأييد الرباني كان مع الملك فقد استمتع برحلة بحرية ميمونة ووصل بسلام الى مضائق أبيدوس ومطلع البوسفور المعروف باللغة العامية باسم نراع القديس جورج .

وعلم السيد الامبراطور الذي كان ملكا حكيما وحصيفا وصاحب

مكانة سامية جدا ، وجديرا بالمدح في كل النواحي ، علم يدهشة أن ملكا قويا وحاكما لملكة مشهورة وعظيمة حبيبة الرب ، كان خلافا للعرف على وشك زيارة امبراطوريته ، وكان تفكيره الأول التساؤل حول الدافع لرحلة غريبة وصعبة جدا كهذه ، ثم امتلأ بالحبور بعدما اتضح له أن نعمة فريدة لامثيل لها قد اضيفت عليه بكل كرم من عليين وأنها ستزيد امجاده وترفع مكانته ، حيث لم

يسجل حدث غريب كهذا في أي مكان من حوليات تاريخ امبراطوريته ، ولم يحدث من قبل أبدا أن زار ملك من ملوك القدس - الذي يعتبر المدافع والمحامي عن الأماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته - أيا من أسلافه الأباطرة ، فقرر الامبراطور استباق وصول الملك في أن يظهر له تشريفا كبيرا ، ولهذا ، استدعى ابن أخيه يوحنا البرتو - باستوس وكان أبرز نبلاء القصر المقدس وهو الذي تزوج الملك عموري من ابنته ، فأرسله ليقابل الزائر الملكي .

وأمره أن يتأكد شخصيا من وجوب إظهار إجلال كبير للملك في جميع المدن والأماكن التي يمر فيها موكبه وذلك تمشيا مع العرف الأزلي للامبراطورية ومع العظمة الفريدة المتعلقة بها ، وعلاوة على ذلك ، وجب عليه أن ينصح الملك كابن له لينتظر قدوم الممثلين الامبراطوريين الذين سيرافقونه إلى المدينة الملكية .

وتنفيذا لأمر الامبراطور استقبل هذا الأمير الرائع ومعه حاشية رفيعة المستوى ، الملك في مدينة غاليبوس الواقعة على البوسفور ، والتي تقع على مسافة قريبة من مضائق أبيدوس ، وبما أن الريح لم تكن بالاتجاه الصحيح في ذلك الوقت لتدفع السفينة إلى المدينة الامبراطورية نزل الملك هنا من الشينيني وتقدم مع أفراد حاشيته الشخصية على صهوة الجواد إلى مدينة هرقلية الواقعة على الساحل نفسه ، وقد وجد الأسطول هناك في الميناء ، حيث كان قد

استفاد من تغيير موات للريح ووصل قبله ، وهكذا ، ركب ظهر السفينة مجددا ووصل إلى القسطنطينية بعد رحلة ميمونة .

٢٣ - الملك يدخل إلى الحضرة الامبراطورية ويستقبله الامبراطور بإجلال ملحوظ . إجراء محادثات متكررة بينهما حول مسائل بالغة الأهمية .

يقع في هذه المدينة المقر الامبراطوري المعروف باسم قصر قسطنطين على شاطئ البحر المقابل للشرق . وللطريق المؤدي إليه من البحر رصيف رائع من رخام بديع وتنزل درجات السلم الرخامي إلى حافة الماء وتزينها تماثيل الأسود والأعمدة المصنوعة من الرخام وتضفي على الموقع روعة ملكية ، ولقد احتفظ عادة بهذا المدخل لاستخدام الامبراطور فقط عندما كان يرغب بصعود الجزء العلوي من القصر ، ومنح الملك امتياز استخدامه خلافا للعادة المألوفة وكإشارة على تشريف خاص ، وانتظر قدومه هنا كبار النبلاء من القصر المقدس يحيط بهم حشد من عناصر الحاشية الملكية ، وقد منح استقبالا مهيبا للغاية ، وتوجه من هناك بصحبة حاشيته وملحقين كثر من البلاط وسار خلال أروقة مختلفة وغرف متعددة الأنواع إلى القسم العلوي من القصر حيث يقيم الامبراطور مع نبلائه المشهورين ، وتدلّت أمام قاعة المقابلات ستائر من أنسجة ثمينة مزخرفة بالأعمال اليدوية مماثلة في قيمتها للمادة نفسها ، ويمكن أن ينطبق عليها بالفعل بشكل موثم أقوال ناسو : « فاقت الصنعة المادة كثيرا » (٢٧٣) .

استقبل نبلاء الامبراطور العظماء الملك خارج هذه القاعة تماما حيث وجهوه إلى ما وراء الستائر المذكورة منذ لحظات ، ويقال إنه تم عمل هذا حتى يمكن المحافظة على سمو العظمة الامبراطورية وليكسب في الوقت نفسه ود الملك تجاه الامبراطور . حيث يقال إن الامبراطور ، الذي لم يكن محاطا إلا بأعظم نبلاء قصره ، قد نهض

بطريقة ودية ليحيي الملك ، وهو عمل لو تم بحضور البلاط المحتشد ،
لبدأ أنه يظهر تطلفا كبيرا من جانب جلالته الامبراطورية (٢٧٤).

وحالما دخل الملك سحبت الستائر وأصبح الامبراطور مرثيا
بالنسبة للموجودين في الخارج ، وكان جالسا على عرش من الذهب
ومرتديا اثوابا امبراطورية ، وأجلس الملك إلى جانبه على عرش
آخر كان رائعا لكنه أخفض قليلا عن عرش الامبراطور ومنح
الامبراطور بسخاء زائد التحية المألوفة وقبله السلام لنبلاننا أيضا
وأجرى استفسارات لطيفة حول سعادة الملك وأعضاء حاشيته ،
وأظهر بوضوح بأقواله وتعبيره أن قدومهم قد أعطاه سرورا كبيرا ،
وكان قد أمر الخدم وموظفي القصر المقدس بإعداد أجنحة خاصة
ذات عظمة كبيرة داخل القصر نفسه للملك وحاشيته ، وهيأت في
المدينة مساكن منفصلة ذات مستوى رفيع مناسب وقعت على مقربة
من مقر إقامة الملك لسكن النبلاء المرافقين ، ثم انسحب الزوار من
الحضرة الامبراطورية وخلوا لأنفسهم لفترة من الزمن بمرافقة
الملك ، ثم صرفهم الملك أيضا بعد أن حدد الساعة التي وجب عليهم
العودة فيها ، وأرسلهم إلى مساكنهم .

عقد المبعوثون يوميا مداولات جدية في ساعات حددت خصيصا لهذا
الغرض وكانت تارة مع الامبراطور وتارة فيما بينهم وتناولت
المحادثات القضايا التي أتت بهم إلى هنا وخصصوا في المقام الأول
دراسة حذرة للغاية للإجراءات التي يمكن بواسطتها إنجاز هدف
رحلتهم الذي كانوا قد تحملوا في سبيل نجاحه مشقات كثيرة جدا ،
حتى يتمكنوا من العودة إلى الوطن متوجين بالنجاح .

شرح الملك في أحاديث ودية كثيرة عقدها مع الامبراطور على انفراد
احيانا وبحضور النبلاء البارزين من القصر مرات أخرى الأسباب
التي أتت إلى زيارته ، وأعلن في آخر الأمر عن احتياجات مملكته ،
وأكد على الشهرة الأبدية التي يمكن للامبراطور أن يحققها بتولي
القيام بمشروع الاستيلاء على مصر وأكد له ببراهين إيجابية كيف

يمكن إنجاز المشروع بسهولة ، وأصغى الامبراطور بشكل إيجابي لاقتراح الملك بعدما أقنعتة أقواله ووعد بتنفيذ رغباته بأكملها .

اغدق الامبراطور في هذه الأثناء ، حسبما يليق بعظمته الامبراطورية ، هبات عديدة على الملك وعلى النبلاء من حاشيته و أظهر عناية كبيرة خلال زيارات متكررة حول سعادتهم وصحتهم ، وتنفيذا لأوامره ، فتحت لهم حتى الأجزاء الداخلية من القصر – أي الأجنحة الخاصة التي لا يطؤها عادة سوى المقربين من أبناء شعبه ، والجناح الخاص المفرد لاستعماله – كما تفتح لأفراد أسرته ، وامتدت هذه الامتيازات أيضا إلى المباني المغلقة أمام العامة من الناس ، وإلى جميع الكنوز الثمينة التي كان أسلافه الأباطرة قد جمعوها هناك ، وبلغ الأمر إلى حد السماح لهم برؤية آثار القديسين و آثار مولانا يسوع المسيح الثمينة بما في ذلك الصليب والمسامير والحربة(٢٧٥) والأسفنجة والقصبية والتاج الشوكي والرداء الكتاني والصنادل . ولم يبق هنالك أي شيء مقدس أو روحي حوفظ عليه بتوقير من أيام الأباطرة قسطنطين وتيودوريوس وجستنيان إلا وشاهدوه في المستودعات الخاسه للغرف المقدسة بدون تحفظ .

ودعا الامبراطور الملك وحاشيته من وقت لآخر في العطل وأوقات الفراغ ليستمتعوا بالاستجمام الذي قدمته تسليات جديدة ذات سمو ورفعة ، حسبما يليق بالمرتبة المسجدة للملكين ، وجلبت أحيانا أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية حيث تصاعدت من أوتارها نغمات ذات عذوبة رائعة بمقياس متناغم من أجل ابتهاجها . وفوق ذلك ، فقد غنت جوقات من الفتيات وقدمت مسرحيات إيمائية ذات سمات عالية ، ومع ذلك ، فقد تم التقيد دائما بالذوق والأخلاق الحميدة . وأمر الامبراطور أيضا أن تقدم – على شرف الملك – للناس القاطنين في المدينة ألعاب نفيسة ورائعة تشبه التي ندعوها ألعاب مسرحية أو سيركات(٢٧٦) .

٢٤ - عودة الملك مع نبلائه إلى بلادهم محملين بالهدايا وذلك بعدما تحقق الهدف من رحلتهم .

اقام الملك ونبلاؤه عدة ايام في قصر قسطنطين ، ثم نقل الامبراطور اقامته الى القصر الجديد المسمى بلا شيرين (٢٧٧) .
بمراقة الملك لاجراء تغيير حيث اعتبر ذلك الوسيلة الاكثر فعالية للتخلص من الرقابة ، وتقيد الامبراطور هنالك ايضا وبشكل كامل بقوانين الضيافة ، فقد استضاف الملك بكرم في قصره لعدة ايام حيث خصصت اجنحة فخمة للملك عموري في اكثر المناطق خصوصية في المقر الامبراطوري لاسلافه ، وصدرت الاوامر في القوت نفسه بتجهيز مساكن لحاشية الملك قريبة من هذا القصر ، ولم يتوقف ضباط خزانة الملابس هنا كما لم يتوقفوا من قبل ، مع عدد آخر من الضباط معينين خصيصا لهذا الواجب عن تأمين كل النفقات بشكل فخم ومفرط ليس فقط للأشياء الضرورية بل حتى للكماليات الزائدة .

تمت مرافقة الملك إلى كل مكان من المدينة بكاملها داخل كل من الاسوار وخارجها وقام بزيارة الكنائس والأنيرة التي توفر منها عدد غير محدود . ونظر إلى أقواس النصر والاعمدة المزخرفة بالأشياء التذكارية ، وكان مرشده نبلاء كبارا يعرفون الأماكن بشكل جيد ، ولدى استفساره عن طبيعة وهدف كل معروض ، كان الرجال الأكبر سنا والمطلعون بشكل جيد يقدمون له المعلومات الكاملة .

وأبحر في هذا الوقت نفسه عبر اليوسفور إلى مدخل البحر الأسود ، حيث يبدأ اليوسفور مجراه إلى البحر المتوسط ، وهكذا ، زار الملك الذي كان متفتح الذهن متلهفا لوما لمعرفة سبب الأشياء أماكن لم تكن معروفة له حتى الآن . وعاد في نهاية الامر إلى المدينة وهو مسرور تماما بما كان قد رآه وسمعه ، وواصل المداولات الوبية

مع الامبراطور حيث كانت رغبته الأكثر جدية أن يوصل مهمته إلى نهاية ناجحة .

وبعد مضي الوقت المناسب تم التوصل إلى إيجاد حلول سعيدة لجميع المسائل الهامة التي جرى بحثها بتلief ، وتم تحويل الاتفاق إلى معاهدة مرضية لكل من الامبراطور والملك وتم تدوينها ثم ختمت بختم الامبراطور والملك ، وبعدها استأنز الملك بالانصراف وبدأ يعد التحضيرات للرحيل مصاحبا بود الجميع وأمانهم الطيبة ، ثم أظهر الامبراطور نحو الملك الكرم والسخاء بشكل أكثر من ذي قبل ، وبصورة لا يمكن للمديح تصويرها ، إضافة إلى هدايا رائعة غاية الروعة من السلع الأجنبية ، بينما أمطر حاشيته ، حتى الصغير منها ، بهدايا لا حدود لها وأكثر من أن تحصى .

وأظهر بروتو سياستوس اللامع سخاء كبيرا أيضا نحو السفارة بأكملها ، وألهب الروح ذاتها الأمراء الآخرين أيضا ، فتنافسوا فيما بينهم في إهداء هبات سخية للملك ، لم تفتقر إلى أناقة المادة وجمال الصنعة ، وكلها عبرت عن حسن ودهم ، وعندما أصبح الأسطول جاهزا أبحر الملك بعدما أنجزت مهمته بنجاح ، من القسطنطينية مسافة مائتي ميل عبر اليوسفور الذي يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، وبعدها مر بين مدينتي سيستوس المشهورتين اللتين تعتبران موطن لياندر نقلته ربح مواتية إلى البحر المتوسط وأخيرا ألقى مراسيه في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز في مدينة صيدا (٢٧٨)

٢٥ - الملك يحشد الجيش في الصفورية . عودة فريدريك رئيس أساقفة صور من بلاد ما وراء البحر . مقتل وليم أسقف عكا في رومانيا .

علم الملك لدى عودته إلى المملكة أن نوز الدين كان ما يزال

معسكرا ينتظر مع جيش ضخّم في أحواز بانياس ، فاستدعى إليه نبلاء المملكة ، ذلك أنه خشي من أن يحاول نور الدين شنن الغارات على بلادنا من هناك ، وتقدم نحو طبرية ليحتاط بقدر الامكان ضد طارئ كهذا ، وخيم بالقرب من النبع المشهور الواقع بين الناصرة والصفورية ، بالنظر لوقوع هذا النبع على مقربة من قلب المملكة فكان بإمكانه التحرك بسهولة نحو أي جزء من البلاد يمكن أن تستدعي إليه الحاجة ، ونظرا لموائمة هذا الموقع اعتاد عموري وأسلافه من قبله على جمع جيوشهم في ذلك الموقع .

وحدث في حوالي الوقت ذاته أن عاد سلفنا فريديريك رئيس أساقفة صور ، الذي كان قد أرسل باسم المملكة ليلتمس المساعدة والمشورة من ملوك الغرب ، إلى البلاد مخفقا بعد اقامة استغرقت عامين في البلاد الواقعة فيما وراء البحار . وكانت الجهود التي بذلها عقيمة تماما ، ولم يحصل على أي شيء كان قد طلبه باسمنا . هذا وكان قد أرسل قبله الكونت ستيفن ، وكان رجلا منحدرًا من أسرة نبيلة غير أن حياته كانت بعيدة عن النبيل ، وكان ستيفن ابن ثيويلد الثاني كونت بليوس وتشارتزر وترويز ، وقام الملك باستدعائه نتيجة لوساطة رئيس الأساقفة ووعده أن يزوجه بابنته ، ولدى وصول الكونت إلى المملكة ، ذكره الملك بلطف بالمسألة ، إلا أن ستيفن رفض العرض ، بعدما كان قد تم عرضه وقبوله ، وعندما عاش حياة فاسقة مخزية لعدة شهور في المملكة ، وقرر العودة إلى موطنه عن طريق البر ، وذهب تنفيذًا لهذا الهدف ، إلى أنطاكية في أول الأمر ومن هناك إلى كليكية ، وعقد العزم من ثم بعد حصوله على مرافقة من سلطان قونية على عبور تلك البلاد في طريقه إلى القسطنطينية إلا أنه تعرض في كليكية بالقرب من مدينة المصيصة لبلية السقوط في كمين قد نصبه له مالح (ماليه) (٢٧٩) وكان اميرا ارمينيا قويا جدا وأخا لطوروس ، فقد انقض قطاع الطرق عليه من مكنهم وانتزعوا منه جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه ، وبعد الحاح وتوسلات عظيمة أقنعهم أخيرا وبصعوبة كبيرة في أن يتركوا فرسا هزيلا لاستخدامه ، ووصل في نهاية المطاف إلى القسطنطينية بهذا الشكل

المخزي ، إنما بعدما عانى من مشقات كبيرة وكان بصحبته عدد ضئيل من المرافقين ، وصل وهو ملاحق بكرهية سكان الشرق أجمعين (٢٨٠)

وصل إلى المملكة في ذلك العام كونت آخر يدعى ستيفن وهو ابن الكونت وليم دي سوان في رحلة حج لاقامة الصلاة والعبادة ، غير أنه كان يختلف تماما عن ستيفن الآخر فمع أنه كان يحمل الاسم نفسه ، فقد كان رجلا متواضعا له حياة شريفة ، وجدير بالاحترام الكبير التام ، وكان بمرافقته هنري الأصغر دوق بيرغندي ابن إحدى أخوات ستيفن المذكور أنفا ، وقد عادا إلى موطنهما بعد إقامة قصيرة ، لكنهما توقفا في الطريق إلى القسطنطينية حيث أبدى الامبراطور نحوهما اهتماما ملحوظا ، وودعهما محمليين بهدايا كثيرة (٢٨١) .

وفي العام التالي الذي كان العام الثامن من حكم الملك عموري (٢٨٢) واجه وليم أسقف عكا ، صاحب الذكرى الطيبة مصيرا غريبا كان لا يستحقه ، فقد كان الملك قد أرسله من القسطنطينية إلى ايطاليا ، وقد طاف في تلك البلاد محاولا بكل وسيلة ممكنة إنجاز المهمة الموكولة اليه ، وعندما كان في طريق العودة الى الوطن وقد عقد العزم على زيارة الامبراطور أثناء عودته - وذلك حسب ترتيب سابق - وبعدما وصل الى أدرنة وهي مدينة مشهورة في تراقية الثانية . وكانت قد أتعبته رحلته الطويلة ، تناول الأسقف الطعام عند الظهر ثم تمدد ليريح أوصاله المتعبة ، وكان بين أتباعه شخص يدعى روبرت - كان قد رقاها هو نفسه الى منصب الكاهن وجعله بين أفراد حاشيته الشخصية - كان مستلقيا في الغرفة نفسها التي كان يستريح الأسقف فيها ، وكان آنذاك يتمثل للشفاء من مرض طويل عانى خلاله الكثير - فاستبد به الجنون فجأة وأمسك بسيفه وطعن الأسقف النائم وأصابه بجراح مميتة ، وسمع رجال الأسقف الموجودين في الخارج صرخاته وأدركوا من خلال تأوهات وصيحاته العالية أن سيدهم كان في آلام الموت ، وحاولوا الاندفاع لمساعدته

الا أن الباب كان مقفلا بإحكام من الداخل حيث كان الدخول مستحيلا ، وعندما تم أخيرا فتح الباب بالقوة وجدوا سيدهم بدون حراك مع أن قلبه كان ما يزال يخفق بضعف ، وكان هدفهم الأول الآن هو القبض على المجرم وتسليمه مكبلا بالسلاسل الى العقاب اللائق به حسب القوانين التي تحظر القتل ، غير أن الأسقف منعهم من ذلك بالقول والاشارة وتوسل اليهم بجدية بالغة أن يمنح القاتل غفرانا كاملا لسعادة روحه ، وعندما كان ما يزال يتوسل اليهم بعدم اتخاذ أي اجراء ضد الرجل الشاب لاماتته تخلى عن نفسه الأخير الى الرب ، وقد حدث هذا في التاسع والعشرين من شهر حزيران .

ولم تتمكن حتى الآن من تحديد سبب هذا العمل ، وقد قال بعضهم إن روبرت ، الذي اقتترف هذا العمل الوحشي ، كان يعاني من مرض طويل ، وكان على الرغم من تماثله للشفاء قد انتابته نوبه عنيفة مفاجئة ، ولذلك لم يكن مسؤولا عن هذا العمل الشرير ، وعلى العكس من ذلك ، يؤكد آخرون أنه ارتكب الجريمة بسبب كراهيته لرجل كان يعمل حاجبا للأسقف ، وكان يستغل حظوته لدى سيده الى أبعد الحدود ، فعامل روبرت و الآخريين بشكل سيء (٢٨٢)

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه جرى تعيين جوزشويوس وهو كاهن وشماس في تلك الكنيسة ذاتها ، أسقفا لعكا وخليفة لوليم المتوفى .

٢٦ - مالخ (٢٨٤) الأرمني ، أخو طوروس يضم قواته إلى قوات نور الدين و يجتاح منطقة انطاكية . الملك يسرع بالتوجه الى هناك ليقمع عمله الشرير

حدثت في هذه الآونة وفاة طوروس الذي كان رجلا عظيما ونبيلا كنت قد ذكرته مرارا كأمر قوي للأرمن . ورجب أخوه مالخ ، الذي

كان رجلا شريرا للغاية ، أن يستولي على الميراث لنفسه ، لهذا القصد ذهب الى نور الدين وتوسل اليه بجدية أن يعطيه قوة من الفرسان ليستولي بها بقوة على ممتلكات أخيه ، وكان النبلاء العظماء في تلك المنطقة قد أرسلوا الآن بعد وفاة طوروس في طلب توماس (٢٨٥) ، وهو احد ابناء اخت لهنين الحاكمين ، وعينه وملكوه بشكل أمن به سائر اماراة خاله ، وكان توماس لاتيني المولد ، غير انه افتقر تماما الى القوة والعقل ليوائم نفسه للتعايش والتعاون مه هؤلاء الذين قد استدعوه .

وتمكن مالح في ظل بعض الشروط المحددة تماما المرضية لنور الدين من الحصول على قوة كبيرة من الفرسان ، وبعمله هذا كان مالح اول بني جذسه اقداما على انتهاك عادات اسلافه ، بطلب مساعدة العدو وبإخال قوة مسلحة من الكفرة الى ميراثه واراخي ابائه ، واجتاح ممتلكات اسلافه بالقوة ، وطرد ابن أخيه ، واستولى على المنطقة بأسرها ، وكان اول أعمال حكمه بعدما استولى على السلطة ، تجريد فرسان الداوية من جميع ممتلكاتهم في كليكية مع انه كان ينتمي من قبل الى منظماتهم ، ثم شكل حلفا مع نور الدين والاتراك وفق معاهدة نادرة ما تعقد حتى بين الأخوة ، وتخلي عن شريعة الرب بعدما أصبح كافرا ومن ثم الحق بالمسيحيين جميع الأضرار التي استطاع إلحاقها ، وألقى في غياهب السجون جميع الذين حدث أن وقعوا في قبضته ونقلهم الى بلد العدو لبيعوا كعبيد .

وأظهرت هذه الاساءات التي ارتكبها هذا الرجل الشرير ضد المسيحيين على الفور أنه من أسوأ أعدائهم ، وهكذا ، حمل أمير أنطاكية وعظماء تلك المنطقة السلاح ضده مع أنه بدا شاذا وغريبا بالنسبة للمسيحيين أن يثوروا ضد أمرىء كان يعتقد العقيدة نفسها ، الأمر الذي كان مماثلا في الواقع لحرب أهلية تقريبا ، ودفعوا مالح ووصموه بأنه عدو المملكة .

وبادر الملك مع قواته الى أنطاكية عندما علم بالمشكلة التي كانت قد ثارت في تلك البلاد لأنه رغب في أن يقوم بدوره في أي اجراء يخدم السلام ، وأرسل من هناك رسله الشخصيين الى مالخ ذلك التعيس ، الذي كان رجلا منبوذا تماما ولا يحظى بتأييد الرب ، وطالب بالحاح في أن يوافق على عقد مداولة معه بنفسه في وقت ومكان موائمين ، وتظاهر مالخ بالسرور بهذه الرسالة غير أن عواطفه كانت مختلفة تماما في الواقع ، وأرسل الملك إليه مرات عديدة المندوبين وحاول عقد هذا اللقاء ، إلا أنه اكتشف في اخر الأمر أنه مخدوع بحيل هذا الرجل الشرير ومكره ، وأنه لا يمكن بالتالي تحقيق أي شيء بهذه الطريقة ، وبناء عليه جمع في خاتمة المطاف جميع قوات المسيحيين الموجودة في ذلك الموقع ، وغزا أراضي عدوه بهذا الجيش ، وحرق الجند المحاصيل أثناء سيرهم عبر سهل كليكية (لأن الزحف عبر الطريق الجبلي المنحدر كان أمرا في غاية الصعوبة) وحاول الجند الهجوم على القلاع الواقعة على طول خط سيرهم ، لكن وصل فجأة رسول يحمل نبأ مشؤوما أفاد أن نور الدين كان قد ألقى الحصار على البتراء عاصمة العربية الثانية ، والمعروفة أيضا باسم الكرك ، وهي شائعة ثبت أنها صحيحة.

أحدث هذا النبأ كربا شديدا للملك ، فاستأذن الأمير بالانصراف على الفور وانطلق بسرعة مع اتباعه الذاتيين ، لكن كان نبلاء الملك قد جمعوا قبل وصوله الى بلاده بعمل فوري وحصيف سائر القوة العسكرية في المملكة ، وكان همفري كافل المملكة قد تولى المسؤولية الكاملة عن الجيش ، بينما عهد الى رالف أسقف بيت لحم مهمة حمل صليب الصليبوت ، وكان الجنود يتقاطرون بشجاعة وبونما تأخير الى المكان المحدد عندما قابلهم رسول جلب الأخبار الهامة التي ثبت أنها صحيحة ، وأفادت أن نور الدين كان قد تخلى عن الحصار دون أن يحدث أضرارا للموقع ، وأنه عاد الى موطنه ، وحدث بالتالي أن وجد الملك لدى وصوله الى

المملكة - خلافا لتوقعاته - أن كل شيء كان آمنا بقدر ما كان مرغوبا.

٢٧ - صلاح الدين يحاصر قلعة الكرك الواقعة فيما وراء الأردن - ادراكه أن جهوده عقيمة وعودته الى بلاده.

استعد صلاح الدين في العام اللاحق مع بداية حلول فصل الخريف ليغزو منطقتنا بقوات ضخمة وعدد كبير من الفرسان ، وعبر الصحراء على رأس حشود لا تحصى جمعها من سائر أنحاء بلاد مصر ووصل الى الموقع المسمى باسم كنيس الترك.

وكان الملك قد استبق قدومه فحشد جيشه ، ونصب معسكره ، بمرافقة السيد البطريرك الذي كان يحمل صليب الصليب المانع للحياة ، بالقرب من بئر السبع حيث يمكنه مقابلة العدو بسهولة أكثر.

ولقد قيل إن قوات صلاح الدين كانت تتمركز على بعد ستة عشر ميلا تقريبا من معسكر الملك ، الا أن الملك عموري لم يكن واثقا حتى الآن أن الأتراك قد وصلوا بالفعل الى ذلك الموقع ، ومع ذلك ، ثبتت صحة الرواية ، وكان صلاح الدين قد أقام بالفعل معسكره هناك بسبب توفر الماء الموائم.

وقرر الملك بعد التداول مع نبلائه أن يغير طريقه ليتجنب المقابلة مع الأتراك ، وهكذا ، تقدمت القوات والناس جميعا الى عسقلان تحت زريعة البحث عن العدو الذي كانوا قد تجنبوه بحذر وهو على مقربة منهم ، وزحفوا من عسقلان الى الداروم وعادوا من هناك ثانية الى نقطة انطلاقهم الأصلية بعد تبديد عقيم للجهد والنفقة.

تقدم صلاح الدين في هذه الأثناء عبر سهول أنوم وقاد كتائبه الى وادي عربة ، وحاصر هناك قلعة تعتبر المعقل البارز والرئيسي لذلك الاقليم بأسره ، وهاجم هذه القلعة بنشاط عنيف بقدر ما سمح الوضع ، لأنها كانت تقع على هضبة مرتفعة وكانت محصنة بشكل رائع بالاسوار والأبراج والشرفات وكانت القرية الخارجية واقعة على منحدر الهضبة ، في موقع منحدر جدا وعال بحيث لم يكن هناك حاجة للخوف من الغزوات أو الهجمات بالآلات الحربية أو الأقواس ، وكان السكان جميعهم من المسيحيين ، ولذلك كان ممكنا الاعتماد عليهم ، وعلاوة على ذلك كانت القلعة مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وكان فيها حامية كافية من الجنود للدفاع عنها.

وبدد الكفرة جهودهم لبضعة أيام دون نجاح ، وأخيرا أصدر صلاح الدين أمر الرحيل بعدما اقتنع أن القلعة كانت منيعة ، وعاد الى مصر مع قواته عن طريق الصحراء.

٢٨ - صلاح الدين يدمر المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن بالأكمل. الملك يحتفظ بجيشه في موقع يسمى الكرمل. ريموند صاحب طرابلس يعود من الأسر.

في العام اللاحق الذي كان العام العاشر من فترة حكم الملك عموري أجرى صلاح الدين استعداداته من جديد لغزو المملكة ، وقد رغب بالتعويض عن إخفاقه بعدما أدرك أنه لم يكن قد أنجز سوى القليل ضد قواتنا في العام السابق ، وهكذا جمع حشدا ضخما من المحاربين من أنحاء مصر كلها ومن أماكن أخرى أيضا وتقدم عبر طريق الصحراء حتى تبدو تحركاته أقل لفتا للنظر ، ويمكنه بالتالي الحاق ضرر اكبر بالسكان (٢٨٦) ، ووصل في شهر تموز الى الموقع ذاته الذي كان قد احتله بجيوشه في العام السابق.

الا ان الملك كان قد بلغته أخبار تقدمه ، وهكذا ذهب الى

الصحراء مع نخبة القوات العسكرية في المملكة ليقابل الامير الكافر ، وأبلغ مجددا أن صلاح الدين كان قد انتقل ، كما فعل في العام السابق الى وادي عربة ، وذهب الملك الى المنطقة الجبلية بعدما خاف من اللحاق به الى هناك ، وخشية أن يقوم صلاح الدين لدي معرفته بأنه كان يطارده من الدخول من ناحية ثانية ويهدم المملكة ، اختار الملك موقعا موائما هناك وتراجع الى الكرمل.

والكرمل هذه هي ليست جبل الكرمل المشهور، الواقع على الساحل، والذي كان فيما مضى دار الياس ، بل هي قرية قرأنا أن نابال الاحمق كان قد سكن فيها من قبل (٢٨٧). واختار الملك هذا الموقع بحكمة بسبب توفر المياه ، حيث كان هناك بركة قديمة ذات امتداد كبير وكانت كافية لتزويد الجيش بأسره بالمياه الوفيرة ، وعلاوة على ذلك ، كانت الكرمل بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن ، ومفصولة عنها فقط بالوادي الشهير الذي يشكل الحدود بين المنطقتين والذي يقع البحر الميت فيه ، ولهذا السبب ، فقد كان بإمكان جيشنا الحصول على أخبار متواترة عن تحركات العدو والتأكد من وضع قوات صلاح الدين.

نهب صلاح الدين - في الوقت نفسه ، وكما شاء - المنطقة بأسرها لأن الملك تردد في الاقتراب من تلك المنطقة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، وأمر صلاح الدين باحراق كل ما عثر عليه خارج القلعة ، وأمر بقطع الأحرش والكروم وأمر بتدمير القرى ، وعاد أخيرا الى مصر وذلك في حوالي نهاية شهر ايلول بعدما اجتاح المنطقة اجتياحا تاما وحسب هواه الاستبدادي.

عاد في هذه الآونة ريموند الاصغر كونت طرابلس الى ممتلكاته الموروثة وكان قد أمضى ثماني سنوات كسجين في الفقر المدقع والسلاسل ، وقد أطلق سراحه في النهاية بعد دفع فدية قدرها ثمانون (٢٨٨) الف قطعة ذهبية ، واعد الى وضعه السابق من الحرية ، فرحب الملك به لدى عودته بلطف بالغ ، وأعاد اليه المنطقة

التي كانت تحت رعايته خلال غيابيه وذلك دون إثارة لاية متاعب ، وقدم اليه علاوة على ذلك مقدارا كبيرا من الهبات بسخاء ملكي يساعد في دفع فديته ، وأقنع نبلاءه ومطارنة الكنيسة أيضا أن يحنوا حنوه.

٢٩ - الحديث عن فرقة الحشيشة. وعن السفارة التي ارسلوها الى الملك ايضا.

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة والكنيسة ، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي ، وربما الى الأبد ، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود الى الخلف قليلا.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فينيقية وفي أبرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها ، ويبلغ تعدادهم ، كما سمعنا مرارا ، نحو سبعين ألف نسمة ، وربما يزيد على ذلك ، ولقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي ، بل بامتياز الجدارة ، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم « الشيخ » مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبجل ، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعتبرون أي شيء صعبا أو قاسيا جدا في سبيل ذلك ، ويتولون القيام بتلief بأكثر المهام خطيرة تلبية لأمره(٢٨٩)، ومثالا على ذلك ، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به ، فإن الزعيم يضع خنجرا في يد واحد أو عدد من أتباعه ، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم(٢٩٠)، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا ، حيث كان الحشيشة(٢٩١) قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة اربعمائة عام وبشكل عام لدرجة أن جميع

الشعوب تبدو بالمقارنة معهم منحرفة وأنهم وحدهم المتقيون الكاملون بالشريعة ، لكن حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكما لهم كان رجلا فصيحاً جداً ، وحاد الذكاء ولا معة ، وكان بحوزة هذا الرجل - خلافا لعادات أسلافه - كتب الأناجيل والشريعة الرسولية ، وقد انكب بـ_____استمرار على دراسة هذه الكتب وحاول لفترة من الزمن ويجهد كبير اتباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية أيضا .

ودفعته العقيدة الوديعية والمهية للمسيح وأتباعه ، بعد مقارنتها مع عقيدة محمد التعيسة التي كان قد نقلها إلى أصحابه وأتباعه المخدوعين ، إلى احتقار المعتقدات التي كان قد رضعها مع حليب أمه ، وإلى مقت معتقدات الضلال القذرة ، فكان أن أقدم بالطريقة نفسها على تعليم شعبه وجعلهم يتوقفون عن التقيد بخرافة الاسلام ، فدمر المساجد التي اعتادوا على استخدامها ، وأعفاهم من الصوم وسمح لهم بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وأرسل في نهاية المطاف مندوبا إلى الملك حيث كان راغبا بالتقدم إلى فهم كامل لأسرار شريعة الرب ، وكان هذا المندوب الذي يدعى عبد الله ، رجلا حكيما وفصيحاً وبارعا في المشورة ، وامتكنا تماما من فهم عقيدة سيده ، وقد حمل اقتراحات سرية كانت الفكرة الرئيسة منها والفقرة الأكثر أهمية أن شعب الحشيشة سيقوم إذا ماتولى الداوية ، الذين كانوا يحتفظون ببعض القلاع المجاورة لمناطقهم ، بإلغاء جزية الألفي قطعة ذهبية التي كان شعبه يدفعها لهم سنويا ، وإذا ماتقيدوا من ذلك الحين فصاعدا بمعاملتهم بلطف أخوي ، سيقوم باعتناق عقيدة المسيح وتلقي التعميد .

٣٠ - فرسان الداوية يقتلون رسول الحشيشة. نشوب اضطراب عنيف جدا في المملكة نتيجة لهذا. موت رالف أسقف بيت لحم.

استقبل الملك الرسول بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب حس سليم ، فقد وافق تماما على المطالب المقدمة ، ويقال إنه كان مستعدا لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم ألفي قطعة ذهبية ، أي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها ، واحتفظ بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق ، ثم أعاده إلى سيده لاعداد الترتيبات الأخيرة ، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق ، وكان عبد الله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيف مسلولة وقتلوه . وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر ، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا ، وباعتماد تام على أمانة الملك وعلى الود المخلص لشعبنا ، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة (٢٩٢) .

أثار نبا هذا العمل الوحشي غضب الملك ، بشكل عنيف جدا ، فاستدعى النبلاء ، وهو مسعور تقريبا ، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الاساءة إليه شخصا وطلب مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه ، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لا ينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا ، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة ، وأنه قد جلب عارا جائرا على ود وولاء العقيدة المسيحية ، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جدا للرب الذي جرى إعداده لها من قبل .

ولذلك ، تم بموافقة الجميع اختيار نبيلين هما : سيهير دي ميمدنك وغودزكالوس (غودتشوكس) دي تورأوت كرسولين

خاصين ليطلبوا من يوزردي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعويض إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المدنس للمقدسات .

قيل إن واحدا من الداوية يدعى وولتر دي ميسيلو وكان رجلا بعين واحدة وصاحب سمعة شريرة ، ويفتقر إلى التعقل تماما « حيث كانت روحه في منخريه » (٢٩٣) ، كان المدبر الحقيقي للجريمة ، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعا ، ويقال إضافة لذلك إن المقدم أرسل - رغبة في استبقاء هذا الرجل بشكل يفوق استحقاقاته - رسالة إلى الملك مع رسول كان مفادها أنه كان قد فرض عقوبة على الفارس المذنب ، وهو على وشك إرساله إلى البابا ، وقد حضر نيابة عن البابا على أي إنسان القبض على الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به (٢٩٤) ، كما استدرك فأضاف عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفرطة والرعونة التي كانت تستبد به ، وإنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا .

ذهب الملك شخصيا إلى صيدا بخصوص هذه المسألة ، ووجد المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه ، وأمر الملك بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجل المتهم بالخيانة بالقوة من داخل منزله وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى مدينة صور حيث ألقى في السجن ، وكاد هذا الاعتداء على المبعوث أن يقحم المملكة بأسرها في دمار يتعذر إصلاحه ، وتمكن الملك بإعلان براءته إلى مقدم الحشيشية الذي كان رسوله قد هلك بطريقة مشؤومة جدا ، واستطاع تنظيف شرفه ، وبذل الملك في تعامله مع فرسان الداوية اعتدالا كبيرا لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم وفاته . ومن ناحية ثانية يقال إن الملك عموري كان قد عقد العزم على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية ، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية ، لو أنه شفي من المرض الأخير الذي ألم به (٢٩٥)

في الربيع اللاحق حدثت وفاة مستشار المملكة ، الراهب المبجل

رالف أسقف بيت لحم ذي الذكرى السعيدة ، وكان رجلا له طبيعة سمحة ولطيفة ، ودفن بمراسم سامية في بيعة الكنيسة ، وعرضت بعد وفاته مسألة انتخاب خلف له ، إلا أن صعوبات نشأت بسبب الآراء المتضاربة للمنتخبين أثناء مناقشة هذه المسألة ، ولم يمكن إيجاد الحل حتى العام الثاني من حكم الملك بلدوين ابن الملك عموري وخليفته ، وتحملت الكنيسة في بيت لحم دفع نفقات كبيرة بسبب هذا الخلاف .

٣١ - موت نور الدين . الملك يحاصر بانياس إلا أنه يعقد في آخر الأمر هدنة و يذسحب . إصابته بالمرض و إسرعه بالعودة إلى القدس حيث مات في غضون بضعة أيام .

في شهر أيار بعد مضي أقل من شهر من هذا الوقت مات نور الدين المضطهد الجبار للاسم المسيحي ، وكان ذلك في العام التاسع والعشرين من حكمه (٢٩٦) وقد كان أميراً عادلاً وشجاعاً وحكيماً ، وكان بالنسبة لمواريثه وشعبه رجلاً متديناً .

وما أن علم الملك بوفاته حتى حشد قوة المملكة كافة على الفور ، وألقى الحصار على مدينة بانياس ، وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم الذسوة رسالة إلى الملك طالبته فيها بالتخلي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقتة ، ووعدت أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال مقابل ذلك ، وتظاهر الملك في بدء الأمر برفض التماسها وواصل الحصار على أمل ابتزاز رشوة كبيرة .

تابع الملك أعمال الحصار بقوة وحماسة لقرابة خمسة عشر يوماً وسبب متاعب كبيرة للعدو بآلات حصاره ، وبطرق أخرى متنوعة ، إلا أنه أدرك في نهاية المطاف أن مقدرة الأتراك على المقاومة كانت تزداد بثبات ، وبدأ يلاحظ أنه لم يكن لديه أية فرصة بالنجاح ،

واستمر في هذه الأثناء رسل السيدة النبيلة بالمطالبة المستمرة بالسلام ، وأخيرا قرر الملك بقبول المال المعروض إضافة إلى إطلاق سراح عشرين من الفرسان المسيحيين الأسرى ، ورفع الحصار بنية القيام بمشاريع أكبر في وقت لاحق .

واشتكى في طريق عودته إلى الوطن إلى الموجودين من حوله بأنه يشعر بالمرض بعض الشيء ، وأنه لم يكن في حالة جيدة ، وصرف قواته وتابع السير مع حاشيته الشخصية إلى طبرية ، حيث بدأ يعاني من نوبة إسهال شديد ، وبما أنه كان يخشى من اقتراب المرض ، فقد تابع السير على صهوة جواده من هناك (لأن قوته كانت ماتزال كافية لذلك الجهد) سالكا طريق الناصرة وناבלس إلى القدس ، وهناك استمر وضعه يزداد سوءا وباغتته حمى شديدة على الرغم من أن مهارة الطبيب قد شففته من الاسهال ، وبعدما عانى بشكل لا يَحتمل من الحمى لعدة أيام ، أمر باستدعاء الأطباء الاغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى اشتهروا بمهارتهم في المداواة ، وأصر على أن يقدموا له علاجا مطهرا ، وبما أنهم لم يوافقوا على مطلبه هذا ، فقد أمر باستدعاء أطباء لاتينيين وقدم إليهم المطلب ذاته مضيفا أنه سيتحمل المسؤولية بنفسه مهما كانت النتيجة ، فقدموا له أدوية أدت بسهولة إلى حدوث النتيجة المذشودة وبدأت بأنها تقدم له بعض العون . إلا أن الحمى المألوفة عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول الغذاء ليقوي جسده الذي كان الدواء العنيف قد أضعفه ، واستسلم لمنيته وقد توفي في الحادي عشر من شهر تموز في العام ١١٧٣ لتجسيد ربنا ، وفي العام الثاني عشر والشهر الخامس من حكمه وفي العام الثامن والثلاثين من عمره (٢٩٧) . ودفن بجانب أخيه وبين أسلافه من النسب ذاته أمام موقع الجلجلة وكان رجلا صاحب حكمة وفطنة ، وكان مؤهلا تماما لتولي زمام الحكم في المملكة . وبسبب طلباته الملحة عقدنا العزم على كتابة هذا التاريخ بخصوص أعماله وأعمال أسلافه .